

التفاعلية الرمزية بنيةً ومفهوماً وإشكاليةً
رؤية نقدية معاصرة

Symbolic Interactionism as a Concept, Structure,
and Schooling:
A Contemporary Critical Perspective

أ. د. علي أسعد وطفة

كلية التربية
جامعة الكويت

watfaali@hotmail.com



التفاعلية الرمزية بنيةً ومفهوماً وإشكاليةً رؤية نقدية معاصرة

أ.د. علي أسعد وطفة

ملخص:

تُشكّل "التفاعلية الرمزية" (Symbolic Interactionism) أحد أهمّ التيارات السوسولوجية التي فرضت نفسها نقيضاً مُناظراً للإتجاهات الكبرى في علم الاجتماع ، مثل: البنيوية والماركسيّة. وينظرُ معظمُ النقادِ اليومِ إلى التفاعلية الرمزية بوصفها نظريةً سوسولوجيةً متكاملةً الأركانِ رغمَ حداثها نسبياً. وقد عكفَ روادُ هذه النظرية على تحليل الظواهر الاجتماعية الصغرى "الميكروسوسولوجية" سعياً إلى فهم العلاقات التفاعلية الرمزية القائمة بين الأفراد في المجتمعات الإنسانية وتحليلها وإدراك معانيها ودلالاتها ومعانيها. وقد ركّزَ روادها على دراسة مُعطيات الحياة اليومية للأفراد وفعاليتهم السوسولوجية القائمة في مدارات إتصالهم ومسارات تفاعلهم، واعتمدوا منهجياً على تحليل الرموز والمعاني والدلالات التي تُعطي معنىً للتجارب الاجتماعية في الحياة اليومية. تتناولُ هذه الدراسة "التفاعلية الرمزية" نقداً وتحليلاً، وتحاولُ أن تُقدّمها إلى القراء بما تنطوي عليه من مفاهيم وإشكالياتٍ ومنهجيات. كما تسعى إلى التعريف بأهمّ التيارات الداخلية والتنوّعات المدرسية الأساسية لهذه النظرية، واستكشاف التناقضات القائمة بينها، وفي النهاية تُحاولُ أن تُقدّمَ مدخلاً نقدياً عميقاً يتناولُ مختلفَ أوجه النقد التي ظهرت في داخل النظرية، ومن خارجها وذلك ضمن رؤية الكاتب وتصوّراته النقدية لهذه النظرية.

الكلمات المفتاحية: التفاعلية الرمزية، الرمز ، التفاعل ، علم اجتماع الوحدات الصغر ، الوظيفية، الماركسية.

Abstract:

Symbolic Interactionism forms one of the sociological currents that has imposed itself as a counterpoint to major trends in sociology, such as structuralism and Marxism. Most critics today view symbolic interactionism as an integrated sociological theory, despite its relative novelty. Proponents of this theory have focused on analyzing micro-sociological phenomena, aiming to understand the symbolic interactions that exist between individuals in human societies, analyze them, and perceive their meanings, implications, and hidden significance. They have concentrated on studying the daily life of individuals and their sociological activities within their communication orbits and interaction paths, methodically relying on the analysis of symbols, meanings, and implications that give meaning to social experiences in daily life.

This study addresses "Symbolic Interactionism" critically and analytically, attempting to present it to readers with its inherent concepts, problems, and methodologies. It also seeks to introduce the most important internal currents and the basic scholastic diversities of this theory, and to explore the contradictions existing among them. Finally, it attempts to provide a deep critical insight that addresses various aspects of the criticism that has emerged both internally within the theory and externally, all within the author's critical vision and his critical perceptions of this theory.

Keywords: Symbolic Interactionism, Symbol, Interaction, Microsociology, Functionalism, Marxism.

1- مقدمة:

تُشكّل التفاعلية الرمزية أحد أهمّ الاتجاهات الرئيسية الكبرى في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي على حدّ سواء، ويشغل هذا الاتجاه مكانةً مهمّةً في الفضاء الواسع للعلوم الإنسانية بحثاً في إشكاليات الحياة الإنسانية وقضاياها الوجودية. ويحاول أصحاب هذا الاتجاه التوغّل في أعماق الحقيقة الاجتماعية وفق منهجيات الإستقصاء الرمزي للوجود الاجتماعي. ويشكّل البحث في المستتر والغامض والكامن والخفي الرمزي أحد أهمّ محاور التفاعلية الرمزية التي تعتمد منهجية البحث في العلاقة الجدلية القائمة بين المجتمع والفرد وفق معطيات الرمز والتفاعل الرمزي. ويتّصف هذا التوجّه التفاعلي الرمزي بالغنى والخصوبة الفكرية التي تقوم على تولىفة متبلورة من العلوم الإنسانية في المجتمع والأدب واللغة وعلم النفس وعلم الاجتماع. ويحاول أصحاب هذا الاتجاه توظيف أدواتهم الفكرية ومنهجهم الكيفية في استكشاف الغامض والمهمّ والخفي الرمزي الضارب في عمق الحياة الإنسانية.

يتجاوز أنصار التفاعلية الرمزية الصيغ القانونية الصلبة لعلم الاجتماع الوضعي إلى مسارات رمزية سائلة تتميّز بقدرتها على استقراء هذا التمازج الساحر بين اللغة والأدب، والتخاصب بين الرمز والمعنى وتوظيفهما منهجياً في تناول الظواهر الاجتماعية الصغرى، وتحليلها واستكشاف دلائلها ومعانيها. وعلى خلاف الصلابة السوسولوجية التي تجعل من الإنسان موضوعاً جامداً صلباً، أو شيئاً متعیناً مجسداً في الواقع كما يراه دوركهايم وأوغست كونت على سبيل المثال لا الحصر.

تضفي التفاعلية الرمزية على الإنسان طابعاً رمزياً معنوياً، وتنقله من صيغة الموضوع المنفعل إلى الذات الفاعلة، ومن هيأته الجامدة إلى صورته الرمزية الفاعلة. فالإنسان، كما يتبدى في التفاعلية الرمزية، هو ذات وهوية وكيان وجودي يرسم مصيره، ويصنع تاريخه، وينسج خيوط مجتمعه على صورته الرمزية. وعلى هذا النحو يحاول أصحاب التفاعلية النظر إلى الإنسان بوصفه صانعاً لا مصنوعاً، ذاتاً لا موضوعاً، رمزاً لا دلالة، دالاً لا مدلولاً، كما ينظر إليه على أنه تشكيل معنوي دلالي تأويلي في جوهره وكيثونته، وعلى هذه الصورة تُعيد التفاعلية الرمزية للإنسان جوهر إنسانيته وتخرجه من دائرة اغترابه الإنساني، ومن الأقفاس الصلبة للمجتمع والحياة الاجتماعية.

وهكذا، يتجلى الإنسان الفرد، وفق هذه الرؤية، صانعاً لتاريخه، فاعلاً في الوجود، منتجاً للحياة، وذلك على نقيض الفكرة الماركسية التي تقول: إن الوجود صانع للوعي، وإن الإنسان نتاج للحادثات الموضوعية، وعلى خلاف هذه الرؤية الماركسية الصلبة يرى الرمزيون أن الوعي الإنساني خلاق في الوجود، فاعل في التاريخ، وأن الوجود الاجتماعي لا يمكن أن يكون في جوهره إلا انعكاساً طبيعياً ونتاجاً حاداً للتفاعل الرمزي الذي يتيم بين البشر، وبينهم وبين وقائع الوجود.

وبهذا المعنى، تتبدى لنا التفاعلية الرمزية في صورة نزعة سوسولوجية مثالية أدبية رمزية تعمل على استكشاف الوجود من خلال التأطير الرمزي والأدبي للتفاعل الإنساني القائم على استنباط المعاني واستكشاف الدلالات. وهي تُشكّل، فضلاً عن ذلك، تياراً فكرياً سوسولوجياً مخصباً بالفلسفة، متماهياً بعلم النفس، متاصلاً في اللغة يمتح تصوراتهِ من معين سيمولوجيا المجتمع، ويتهل من مشارب الرمز

وَالأَدَبِ، وَلِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْمَصَادِرِ وَالْخَصَائِصِ قَدْرٌ وَحِصَّةٌ وَنَصِيبٌ يَتَجَلَّى فِي الْأَصُولِ الْمُنْهَجِيَّةِ لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ.

وَيُقَرُّ الْبَاحِثُونَ الْيَوْمَ بِأَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ تُشَكِّلُ إِتْجَاهاً سوسيولوجياً فِكْراً يَفِيضُ بِالْإِثَارَةِ وَيَتَدَفَّقُ بِالْأَهْمِيَّةِ فِي مُخْتَلِفِ تَجَلِّيَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَمَرَاكِحِ تَطَوُّرِهِ، وَيَتَجَلَّى طَابَعُ الْإِثَارَةِ فِي تَنَاقُضَاتِ الْمَوْقِفِ مِنْهُ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ يَرَاهُ بَعْضُ الْمَفْكِرِينَ نَوْعاً مِنْ سوسيولوجيا الأَدَبِ أَوْ الأَدَبِ السوسيولوجي، وَيَرَاهُ بَعْضُهُمُ الْآخَرَ عَلَى أَنَّهُ مَزِيحٌ مِنَ السيمولوجيا وَالسوسيولوجيا، وَيَقِفُ مِنْهُ آخَرُونَ مَوْقِفاً آخَرَ، إِذْ يَرَوْنَ فِيهِ تَوَلِيفاً سوسيولوجياً يَجْمَعُ بَيْنَ السيكولوجيا الإِجْتِمَاعِيَّةِ الْهيرمينوطيقا الدَّلَالِيَّةِ⁽¹⁾، وَمَهْمَا تَعَدَّدَتِ وُجُوهُ النَّظَرِ، فَإِنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ تُشَكِّلُ تَيَّاراً سوسيولوجياً يَسْتَجْمَعُ فِي ذَاتِهِ مُعْظَمَ هَذِهِ الْخَصَائِصِ وَالْإِمْكَانِيَّاتِ وَالْمُنْهَجِيَّاتِ فِي مَجَالِ تَحْلِيلِ الظَّوَاهِرِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ وَتَفْسِيرِهَا وَاخْتِبَارِ التَّفَاعُلِ السوسيولوجي بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالرُّمُوزِ وَالْمَعَانِي.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْمُنْظُورَ التَّفَاعُلِيَّ يُؤَكِّدُ أَهْمِيَّةَ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ فِي حَيَاةِ النَّاسِ الْيَوْمِيَّةِ، وَيُكْرَسُ مَنْهَجِيَّاتِهِ فِي اسْتِيفَاءِ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي يُؤَدِّي بِهَا هَذَا التَّفَاعُلُ الرَّمْزِيُّ - بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْعَالَمِ بَيْنَ الرُّمُوزِ وَالْمَعَانِي - إِلَى تَشَكُّلِ الظَّوَاهِرِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَيَدْعُو إِلَى اسْتِخْدَامِ أَفْضَلِ الْمُنْهَجِيَّاتِ الدَّلَالِيَّةِ فِي مَجَالِ تَحْلِيلِ السُّلُوكِ الإِجْتِمَاعِيِّ فِي ضَوْءِ هَذَا التَّفَاعُلِ. فَالنَّاسُ وَفَقاً لِلْمُنْظُورِ التَّفَاعُلِيِّ الرَّمْزِيِّ يَتَرَبَّطُونَ عَلَى نَحْوِ تَفَاعُلِيٍّ عَلَى إِيقَاعِ الْمَعَانِي الْمْتَدَفِّقَةِ فِي عَالَمِ الرُّمُوزِ، ثُمَّ يَتَصَرَّفُونَ وَفَقاً لِلْمَعَانِي الَّتِي يَضْفُونَهَا عَلَى هَذِهِ الرُّمُوزِ. وَيَنْبَنِي عَلَى ذَلِكَ أَنَّ التَّفَاعُلَاتِ اللَّفْظِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ بَيْنَ النَّاسِ تَعْتَمِدُ - فِي مُعْظَمِهَا - الْكَلِمَاتِ الْمَنْطُوقَةِ وَالرُّمُوزِ اللَّغَوِيَّةِ لِتَحْقِيقِ التَّوَابُلِ وَتَمَكِينِ التَّفَاعُلِ، وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ رُمُوزاً تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، لِأَنَّ الرُّمُوزَ حَمَالَةً لِلْمَعَانِي، وَهِيَ ذَاتُ الْمَعَانِي الَّتِي يُسَبِّغُهَا الْأَفْرَادُ عَلَى الرُّمُوزِ الَّتِي تُشَكِّلُ بِدَوْرِهَا جَوْهَرَ التَّفَاعُلِ، وَدِينَامِيَّةَ التَّوَابُلِ وَالْمُنْطَلَقَ الْأَسَاسِيَّ لِتَشْكِيلِ الْمُجْتَمَعِ وَبِنَائِهِ فِي مُخْتَلِفِ ظَوَاهِرِهِ وَتَجَلِّيَاتِهِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ. وَيُؤَكِّدُ أَصْحَابُ هَذَا التَّيَّارِ فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنَّ الْكَلِمَاتِ وَالرُّمُوزِ وَالْمَعَانِي لَيْسَتْ سَاكِئَةً وَلَا جَامِدةً، بَلْ هِيَ فِي صَيْرُورَةٍ دَائِمَةٍ مِنْ التَّغْيِيرِ الدِّينَامِيِّ الَّذِي يُؤَسِّسُ بِدَوْرِهِ لِحَرَكَةٍ تَغْيِيرِ دِينَامِيَّةٍ مُسْتَمْرَّةٍ فِي السُّلُوكِ وَالْفَهْمِ الْمُتَجَدِّدِ، لِتَشْكِيلِ بِدَوْرِهَا النَّسْغِ الْحَيَوِيِّ لِلْفِعْلِ الْوُجُودِيِّ النَّشِطِ لِلْإِنْسَانِ فِي الْمُجْتَمَعِ؛ وَهَذَا يَعْني أَنَّ التَّفَاعُلَ الرَّمْزِيَّ بَيْنَ النَّاسِ يُشَكِّلُ الْمَبْدَأَ الْعَامَّ الَّذِي يَكْسِبُ النَّاسَ الْقُدْرَةَ عَلَى تَفْسِيرِ الْعَالَمِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِمْ عَلَى نَحْوِ دَلَالِيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ بِاسْتِمْرَارٍ.

1- الهيرمينوطيقا (Hermeneutics): علم التأويل وتشير كلمة الهيرمينوطيقا في علم الفلسفة إلى الفرع الذي يدرس مبادئ التأويل، والإدراك. فيما تحمل الكلمة ذاتها اسم نظرية معروفة في الميثودولوجيا - علم المناهج - في أسلوب تأويل النصوص المقدسة وتفسيرها بالأخص التوراة والإنجيل. ويعود أصل المصطلح إلى الفعل اليوناني (Hermeneueien) والذي يعني يفسر، يصرح، يعلن، يوضح وأخيراً يترجم. وقد تم اشتقاق المصطلح أيضاً من اسم الإله اليوناني هيرميز، الذي يرمز الذي أخذ مكانه في عقول الإغريق بأنه أصل اللغة والكتابة وراعي الاتصال والتفاهم بين البشر. ومن المؤكد أن هذا المصطلح في الأصل كان يعبر عن فهم وشرح أي حكم غامض أو مبهم من الآلهة كان يحتاج إلى التفسير الصحيح.

وباختصار، يرى التفاعليون أنّ الإنسان كائنٌ معنويٌّ رمزيٌّ يعيشُ في فضاءٍ يكتظُّ بالرموز والمعاني، وهو إذ ذاك لا يكون إلا منتجاً للرموز صائغاً للدلالات فاعلاً في إنتاج المعاني، مُفعلاً بتدقيق الدلالات، ومُتشكلاً في بوتقة الرموز والإشارات والمعاني. ومن الواضح أنّ هذه المعاني وتلك الرموز هي التي تُشكّل الصيغ التفاعلية الدينامية للوجود الإنساني، التي تؤدي في نهاية الأمر إلى تشكيل المجتمع على صورة نسيج اجتماعي رمزي أنتجه الأفراد المنتجون للرموز والدلالات والمعاني.

إنّ الوصف الخاطف، الذي قدّمناه للتفاعلية الرمزية، يتطلّب حوضاً أعمق في الإشكاليات الفكرية المعقدة لهذا الاتجاه الذي يتجلى في صورة مدارس واتجاهات، وينطوي على أفكار وتصوّرات متطورة حيناً، متناقضة أحياناً. وفي مواجهة هذا التشاكل السوسولوجي بُنيت هذه الدراسة للتعريف بالتفاعلية الرمزية، واستكشاف أسسها الفكرية والمنهجية، والتحقق في مصادرها، وبيان أبعادها الأيديولوجية، ومن ثمّ التعريف النقدي برؤاها هذا الاتجاه ومؤسسيه، وتحديد أهم الأفكار التي قدّموها ووضعوها في مختبر النقد العلمي والفكري. كما يهدف البحث إلى تقييم المشروع العلمي والسوسولوجي لهذا الاتجاه في ضوء الانتقادات العلمية التي برزت من داخل التيار، وتلك التي تناولته من الخارج، وهذه التي نراها في ضوء دراستنا وفهمنا لأبعاد هذا التيار واتجاهاته الداخلية. ويُمكن أن نضع بعض المحاور التوجيهية التي تُشكّل الإطار العام لعمليتنا في هذه الدراسة على النحو الآتي:

- البحث في مفهوم التفاعلية الرمزية

- الصراع بين التفاعلية الرمزية والاتجاهات الوضعية.

- التفاعلية الرمزية بوصفها نقيضاً للوضعية السوسولوجية.

- مؤسّسو التفاعلية الرمزية ومدارسها الرئيسية.

- تطبيقات بحثية في مجال التفاعلية الرمزية.

- نقد التفاعلية الرمزية.

2- مفهوم التفاعلية الرمزية:

يأخذ مفهوم "التفاعل الرمزي" صورةً تُوصلُ اجتماعيَّ يقومُ على التبادل التفاعلي للرموز والدلالات والمعاني بالطريقة التي يتأثر فيها الفرد، ويؤثر في عقول الآخرين وتصوّراتهم ورغباتهم ووسائلهم في تحقيق أهدافهم، وفي ممارسة تكيفاتهم الحيوية داخل المجتمع⁽¹⁾.

وتأخذ التفاعلية الرمزية صورةً نظريةً مُحتملةً في علم الاجتماع، وترتسم في الوقت نفسه على هيئة منطوق في علم النفس الاجتماعي، وهي تُركّز على التفاعل الاجتماعي باعتباره الإطار المنهجي في تناول الظواهر الاجتماعية في سياقات تفاعلها وتشاكلها، كما في وضعية نماها وتصلب معطياتها. كما تُركّز على أهمية

1- جى روشيه علم الاجتماع الأمريكي: دراسة الأعمال تالكوت بارسونز الطبعة الأولى، ترجمة د. محمد الجوهري د. أحمد زايد القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص ١٣-١٤.

وَسَائِلِ التَّفَاعُلِ فِي عَلاَقَةِ الْأَفْرَادِ فِيْمَا بَيْنَهُمْ، وَتَتَمَثَّلُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ فِي تَوَاتُرَاتِ الْفِعْلِ الرَّمَزِيِّ وَتَشَاكُلَاتِ الْفِعْلِ الدَّلَالِيِّ.

فَالرُّمُوزُ وَالْمَعَانِي وَالذَّلَالَاتُ وَالتَّصَوُّرَاتُ وَالْكَلِمَاتُ تُشَكِّلُ فِي مَجْمُوعِهَا أَدَوَاتِ التَّفَاعُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، كَمَا تُشَكِّلُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ مَوْضُوعَ الْبَحْثِ وَالذَّرَاسَةِ وَالتَّقْصِي فِي مَجَالِ النِّشَاطِ السُّوسِيُولُوجِيِّ لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمَزِيَّةِ. وَغَالِباً مَا تَعْرِفُ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمَزِيَّةِ بِوَصْفِهَا إِطَاراً نَظْرِيّاً فِي عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ يَقُومُ عَلَى مَفْهُومِ التَّفَاعُلِ الرَّمَزِيِّ، وَيَسْعَى إِلَى اسْتِكْشَافِ الْكَيْفِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تُوجَدُ فِي أَصْلِ تَكْوُنِ النِّسِيَجِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَحْدِيدِ الْفَعَالِيَّاتِ الَّتِي يَعْتَمِدُهَا الْمُجْتَمَعُ فِي تَطْوِيرِ ذَاتِهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى وُجُودِهِ مِنْ خِلَالِ التَّوَاتُرِ الْمَكْتَفِ لِأَفْعَالِ لِلْأَفْرَادِ فِي سِيَاقَاتِ تَفَاعُلِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ عَبْرَ الْمَعَانِي وَالرُّمُوزِ⁽¹⁾. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِصِيغَةٍ أُخْرَى، إِنَّ التَّفَاعُلَ الرَّمَزِيَّ يُشَكِّلُ إِطَارَ عَمَلٍ لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمَزِيَّةِ الَّتِي تَرَى الْمُجْتَمَعُ نِتَاجاً لِلتَّفَاعُلَاتِ الْيَوْمِيَّةِ لِلْأَفْرَادِ، وَهِيَ فِي أَفْضَلِ أَحْوَالِهَا إِطَارٌ مَرْجِعِيٌّ يُمْكِنُ الْبَاحِثِينَ مِنْ فَهْمِ أَفْضَلِ لِكَيْفِيَّةِ تَفَاعُلِ الْأَفْرَادِ مَعَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً ضَمَّنَ عَوَالِمَ رَمَزِيَّةٍ مُتَشَبِّعَةٍ بِالْمَعَانِي وَالذَّلَالَاتِ.

وَيُمْكِنُ تَعْرِيفُ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمَزِيَّةِ أَيْضاً بِأَنَّهَا إِتْجَاهُ فِكْرِيٌّ، أَوْ مَشْرُوعُ نَظْرِيَّةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تُوظَّفُ فِي وَصْفِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يَتِمُّ فِيهَا بِنَاءُ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَفَهْمِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتِمُّ فِيهَا تَشَكُّلُ الْمُجْتَمَعِ كَنْتِيَجَةٍ لِلتَّفَاعُلَاتِ الرَّمَزِيَّةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَ أَفْرَادِهِ. وَتُرَكِّزُ نَظْرِيَّةُ التَّفَاعُلِ الرَّمَزِيِّ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ عَلَى أَهْمِيَّةِ الرُّمُوزِ بِوَصْفِهَا حَمَالَةً لِلْمَعَانِي، وَكِلَاهُمَا - الرُّمُوزُ وَالْمَعَانِي - يَشَكِّلُ أَدَاةً لِلتَّفَاعُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، وَهُوَ عَيْنُ التَّفَاعُلِ الَّذِي يُشَكِّلُ لِحْمَةَ الْمُجْتَمَعِ وَجَوْهَرَ تَكْوِينِهِ. وَتَأْخُذُ النَظْرِيَّةُ بِأَهْمِيَّةِ دِرَاسَةِ التَّفَاعُلَاتِ الرَّمَزِيَّةِ فِي الْجَمَاعَاتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَحْدُثُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ بِصُورَةٍ حِسِّيَّةٍ عِيَانِيَّةٍ، أَيْ وَجْهاً لِيُوجِهَ، وَتُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَى أَهْمِيَّةِ الرُّمُوزِ كَوَسِيلَةٍ لِلتَّوَاصُلِ، وَلَا سِيَّمَا عَلَى الْمُسْتَوَى الْفَرْدِيِّ دُونَ النَظَرِ إِلَى تَأْثِيرِ الْمَوْسَّسَاتِ وَالظَّوَاهِرِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْكُبْرَى.

1- Carter, M. J., & Fuller, C. (2015). Symbolic interactionism. Sociopedia. Isa, 1(1), 1-17.

يُشارُ غالباً إلى عالم الاجتماع البراغماتي الأمريكي جورج هيربرت ميد (George Herbert Mead) بوصفه الأب المؤسس للتفاعلية الرمزية⁽¹⁾، وهو الذي رسم معالمها في كتابه المشهور «العقل والذات والمجتمع» (Mind, Self, Society) الذي نشره عام 1934⁽²⁾.

ويُعدُّ عالم الاجتماع الأمريكي هيربرت بلومر H. Blumer أول من استخدَم مصطلح "التفاعلية الرمزية" (Symbolic Interactionism) في مقالة له بعنوان "علم النفس الاجتماعي" في عام 1937. ويعودُ إليه الفضل الكبير في تطوير جوانب هذا التيار في مختلف مستوياته الفكرية النظرية والمنهجية.

تتمحورُ نظريته التفاعل الرمزي حولَ مفهومين أساسيين كما يبدو من تسميتهما: التفاعل والرمز. ويتوسَّطُ هذين المفهومين مفهوم الإنسان والهوية الإنسانية. وتُشكِّلُ التفاعلية الرمزية نظريةً بعيدة الأغوار في علم الاجتماع، إذ تسعى إلى فهم علاقة الأفراد بمجتمعهم من خلال التركيز على الرموز التي تمكِّنهم من إضفاء المعاني على مختلف مظاهر السلوك والعمل والتجارب في الحياة الاجتماعية. وتُشكِّلُ التفاعلية الرمزية إطاراً عاماً لبناء التصورات السوسولوجية التي ترى بأن المجتمع نتاج للتفاعلات الرمزية اليومية القائمة بين الأفراد في المجتمع. تُركِّزُ هذه النظرية على كيفية قيام التفاعلات الاجتماعية والأشخاص بتعيين معاني للأشياء من حولهم بناءً على تفسير تفاعلاتهم مع الآخرين. وينطلق أصحاب المنظر التفاعلي الرمزي من فكرة أساسية قوامها أن الناس يفهمون عوالمهم الاجتماعية من خلال التواصل والتفاعل الاجتماعي الذي يقوم بدوره على وسائطيَّة التبادل الرمزي إنتاجاً للمعاني والدلالات. وبصيغة أكثر دقة، يرى منظرُو هذا التيار أن المعنى الذي يسبغُه الناس على مكونات العالم من حولنا ينبثق من آليات التفاعل الرمزي مع الناس والأفكار والأحداث. وهذا يعني أن فهمنا للعالم والمجتمع الذي نعيش فيه يعتمدُ على نواتج التفاعل الرمزي الاجتماعي، وبعبارة أوضح، يرى منظرُو هذا الاتجاه أن جوهر الحياة الاجتماعية يتشكَّلُ في صيغة تفاعل بين المعاني والرموز والدلالات التي يضيفها الأفراد على الأشياء.

في كتابه التفاعلية الرمزية (Symbolic Interactionism) يُعرِّفُ هيربرت بلومر "التفاعل الرمزي" بأنه صيغة فريدة للتفاعل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع، والأفراد في سياق تفاعلهم يُفسِّرون أفعالهم،

1- جورج هيربرت ميد (George Herbert Mead) (27 فبراير 1863-26 أبريل 1931) فيلسوف براغماتي وعالم اجتماع وعالم نفس أمريكي، أستاذ في جامعة شيكاغو، حيث كان واحداً من العديد من البراغماتيين المتميزين. يُنظر إليه على أنه أحد مؤسسي التفاعل الرمزي وما أصبح يُشار إليه باسم تقليد شيكاغو الاجتماعي. في مهنة أدبية امتدت لأكثر من 40 عاماً، كان ميد يكتب بشكل مستمر ونشر العديد من المقالات ومراجعات الكتب حول الفلسفة وعلم النفس. ومع ذلك، لم يتم نشر أيًا من كتبه إلا بعد وفاته، قام بعض طلابه بتحرير أربع مجلدات من سجل دورة علم النفس الاجتماعي في جامعة شيكاغو، وملاحظاته والعديد من الأوراق غير المنشورة. وهذه المجلدات والأوراق هي: خطاب كاروس عام 1930. الفلسفة المعاصرة عام 1932. العقل والذات والمجتمع لمورفي عام 1934. حركة الفكر في القرن التاسع عشر عام 1936. الفلسفة القانونية عام 1938. ومن أشهر مقالاته المنشورة: اقتراحات حول نظرية الفلسفة التطبيقية عام 1900. الوعي الاجتماعي والوعي بالمعنى عام 1910. ما هو الوعي الاجتماعي الذي يفترضه علم النفس عام 1910. آلية الوعي الاجتماعي عام 1912. علم النفس الاجتماعي عام 1913. المنهج العلمي والتفكير الشخصي عام 1917. سلوك الرموز الكبيرة عام 1922. التكوين الذاتي والرقابة الاجتماعية عام 1925. حقيقة الهدف من وجهات النظر عام 1926. جوهر الماضي عام 1929. فلسفة جيمس ورويس وديوي في فلسفتهم الأمريكية الأصلية عام 1929.

2- Mead, G.H. Mind, Self and Society, Chicago, University of Chicago Press, 1984.

وَوُؤُولُونَهَا تَأْسِيساً عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَسْبِغُونَهُ عَلَيْهَا⁽¹⁾. وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ "التَّفاعِلَ الرَّمْزِيَّ" يُشَكِّلُ أَرُومَةً عَمَلِيَّةَ التَّفاعِلِ الإِجْتِمَاعِيِّ وَمَضْمُونَهُ، وَهُوَ نَمَطٌ مِنَ التَّفاعِلِ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِالْوَسَائِطِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي تَمَكِّنُ الْأَفْرَادَ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوَاصُلِ الإِجْتِمَاعِيِّ فِي مَعْتَرِكِ الْحَيَاةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، الَّتِي يَنْتَهِي بِتَحْقِيقِ التَّكَامُلِ وَالتَّفاعِلِ وَالإِنْدِمَاجِ الإِجْتِمَاعِيِّ.

وَفِي الْمُسْتَوَى الْمُنْهَجِيِّ رَسَخَ زَوَادُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ مِنْهُمْ الإِسْتِدْلَالِيَّ مِنْهَا مَعْرِفِيًّا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي اسْتِكْشَافِ النَّسِيجِ الرَّمْزِيِّ الْفَاعِلِ فِي تَشْكِيلِ الْمُجْتَمَعِ وَتَرْسِيخِ بُنْيَانِهِ، لِأَنَّ الْمُجْتَمَعَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي مَنْظُورِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ صِبْغَةٍ لِلتَّفاعِلِ الرَّمْزِيِّ بَيْنَ أَفْرَادِهِ ذَهْنِيًّا وَرَمْزِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا وَإِنْسَانِيًّا، وَهُوَ التَّفاعِلُ ذَاتُهُ الَّتِي يُؤَسِّسُ لِلْمُجْتَمَعِ فِي مُخْتَلِفِ تَجَلِّيَاتِهِ وَتَعْيِينَاتِهِ الإِنْسَانِيَّةِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ تَفاعِلَ الْكائِنَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ يُشَكِّلُ الْمُنْتَلَقَ الْحَيَوِيَّ لِتَأْسِيسِ الْمُجْتَمَعِ وَتَشْكِيلِهِ عَلَى صُورَةٍ تَكْوِينَاتٍ إِجْتِمَاعِيَّةٍ مُتَفاعِلَةٍ فِي دَائِرَتِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، يَأْخُذُ التَّفاعِلُ Interaction صُورَتَهُ بِوَصْفِهِ نَسَقًا مُتَوَاتِرًا مِنَ التَّوَاصُلِ الدِّينَامِيِّ الْمُسْتَمِرِّ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، فَرْدًا لِفَرْدٍ، وَفَرْدًا لِجَمَاعَةٍ، وَجَمَاعَةً لِجَمَاعَةٍ أَوْ فَرْدٍ، وَيَنْطَوِي هَذَا التَّفاعِلُ بِالضَّرُورَةِ عَلَى مَخْرُوجِ هَائِلِ مِنَ الرُّمُوزِ Symbols الَّتِي تُشَكِّلُ أَنْسَاقًا مُتَدَافِعَةً مِنَ الإِشَارَاتِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي يُوظِّفُهَا الْأَفْرَادُ فِي عَمَلِيَّةِ تَفاعُلِهِمْ مَعَ الْآخَرِينَ مِنْ أَجْلِ تَوْلِيدِ التَّفَاهُومِ وَالتَّوَاصُلِ الإِجْتِمَاعِيِّ، كَمَا تَأْخُذُ هَذِهِ الرُّمُوزُ هَيْئَةً لِسَانِيَّةً لُغَوِيَّةً مُحَمَّلَةً بِالْمَعَانِي وَمُتَشَبِّعَةً بِالذَّلَالَاتِ وَالإِنطِبَاعَاتِ الذَّهْنِيَّةِ الْمُتَنَوِّعَةِ.

وَبَرَى أَصْحَابُ هَذَا الإِتْجَاهِ، أَنَّ التَّفاعِلَ الرَّمْزِيَّ يُشَكِّلُ الْهُويَّةَ وَالْوَعْيَ الذَّاتِيَّ Self-Consciousness لِلْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ، إِذْ يَتَرْتَّبُ عَلَى الْأَفْرَادِ تَمَثُّلَ الْأَدْوَارِ وَالْمَرَكَزِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ الْعَمَلُ عَلَى وَضْعِ أَنْسَاقِ التَّوَقُّعَاتِ فِي صِبْغَةٍ مَرِنَةٍ وَتَبَادُلِيَّةٍ مَعَ الْآخَرِينَ الَّتِي يُشَكِّلُونَ النَّسِيجَ الإِجْتِمَاعِيَّ، وَيَتَشَكَّلُونَ بِهِ وَمَعَهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَفِي أَتُونٍ صَيْرُورَةٍ دَوْرَةٍ جَدَلِيَّةٍ لَا تَتَوَقَّفُ أَبَدًا.

فَالْمُجْتَمَعُ وَفَقَّ التَّفاعِلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ بَوْتَقَةً يَتَفاعَلُ فِيهَا الْأَفْرَادُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَفِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْوَسْطِ الَّتِي يَحْتَضِرُهُمْ، وَهُوَ الْمَدَارُ الَّتِي تَتَفاعَلُ فِيهِ الدَّوَاتُ الإِنْسَانِيَّةُ، وَالإِطَارُ الَّتِي يَتَدَفَّقُ بِالذَّلَالَاتِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّمْبَالِيَّةِ، تِلْكَ الذَّلَالَاتُ وَالرُّمُوزُ وَالْمَعَانِي الَّتِي يُسْبِغُهَا الْأَفْرَادُ عَلَى عَالَمِهِمُ الإِجْتِمَاعِيِّ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا، وَيُشَكِّلُونَهُ فِي آنٍ مَعًا. وَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ الإِنْسَانِيُّ يُنْتِجُ الرُّمُوزَ، وَيَبْدِعُ الْمَعَانِي، وَيَسْتَقْطِبُ الذَّلَالَاتِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ هَذَا الإِتْجَاهِ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ نَمَطَيْنِ مِنَ الْأَفْعَالِ الإِنْسَانِيَّةِ: أَحَدُهُمَا، إِنْسَانِيٌّ إِجْتِمَاعِيٌّ مُتَشَبِّعٌ بِالذَّلَالَةِ؛ وَالآخَرُ إِنْسَانِيٌّ عَفْوَئِيٌّ يَقَعُ خَارِجَ الْمَعَانِي، وَيَفْتَقِرُ إِلَى الذَّلَالَاتِ، وَهُمْ فِي هَذَا السِّياقِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَفْعَالَ الإِجْتِمَاعِيَّةَ هِيَ فَقطُ هَذِهِ الَّتِي تَحْمِلُ فِي ذَاتِهَا مَعَانِي وَذَّلَالَاتٍ رَمْزِيَّةً وَمَقاصِدَ إِنْسَانِيَّةً فِي أَثْنَاءِ التَّفاعِلِ الإِجْتِمَاعِيِّ، أَي: الْأَفْعَالَ الإِجْتِمَاعِيَّةِ الْحَامِلَةَ لِلْقِيَمِ وَالْمَعَانِي، وَهِيَ الْقِيَمُ وَالْمَعَانِي الرَّمْزِيَّةُ الَّتِي

1- كشرود، فاطمة الزهراء و ابو عمارة العربي، نظرية التفاعلية الرمزية ونظرية الحتمية القمية حدود الانتقاء ونقاط الالتقاء، مجلة الحكمة للدراسات الإعلامية والاتصالية، العدد 24، (2021) صص 154-167. ص 157.

يَشْرَهَا الْفَرْدُ مِنَ الْمُجْتَمَعِ، وَيَشْتَرِكُ فِيهَا مَعَ الْآخَرِ ضِمْنَ أَنْسَاقِ قِيَمِيَّةٍ وَمُيُولٍ وَمَعَايِيرٍ يَشْتَرِكُ فِيهَا مَعَ الْآخَرِينَ، وَيَعْتَمِدُهَا فِي التَّوَاصُلِ مَعَهُمْ، لَكِي يَكُونَ قَادِرًا عَلَى التَّنَبُّؤِ بِسُلُوكِيَّاتِ الْآخَرِينَ وَبَوَاعِثِ تَصَرُّفِهِمْ⁽¹⁾. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ فِي هَذَا السِّيَاقِ: إِنَّ الْإِتِّجَاهَ التَّفَاعُلِيَّ الرَّمُزِيَّ، كَمَا يَصِفُهُ عَالَمُ الْإِجْتِمَاعِ أَنْطُونِي جِيدَنْز (Anthony Giddens)⁽²⁾، يَأْخُذُ طَبِيعَةً لِسَانِيَّةً - سِيمِيَائِيَّةً (semiological)⁽³⁾، إِذْ يَعْتمِدُ عَلَى تَحْلِيلِ الْإِشَارَاتِ وَالرُّمُوزِ وَالْعَلَامَاتِ اللَّغَوِيَّةِ، وَيُرَكِّزُ عَلَى الْخَصَائِصِ اللَّغَوِيَّةِ وَالِدَّلَالِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ الظَّوَاهِرِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَتَحْلِيلِ قَضَايَاهَا.

وَيَتَأَكَّدُ هَذَا الْمَنْحَى الرَّمُزِيَّ فِي نَظَرِيَّةِ جُورْجِ هِيرِبِرْتِ مِيدِ مُؤَسَّسِ هَذَا الْإِتِّجَاهِ الَّذِي يَقُولُ "إِنَّ الْبَشَرَ يَعْتمِدُونَ عَلَى رُمُوزٍ وَتَفَاهُمَاتٍ وَمَوَاضِعَاتٍ مُشْتَرَكَةٍ فِي تَفَاعُلٍ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَلَا تَهْمُ يَعِيشُونَ فِي عَالَمٍ زَاخِرٍ بِالرُّمُوزِ، فَإِنَّ جَمِيعَ عَمَلِيَّاتِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَبَادُلِ الرُّمُوزِ.

وتأسيساً على ما تقدّم، يمكن القول: "إنّ التفاعلية الرمزية تُوجّهُ انتباهنا إلى تفصيلات التفاعلات الشخصية، والطريقة التي تتمُّ بها هذه الترتيبات لإعطاء المعنى لما يقوله ويفعله الآخرون. ويُنوّهُ منظرُ هذه المدرسة بالدور الذي تؤديه هذه التفاعلات في خلق المجتمع ومؤسّساته"⁽⁴⁾.

وفي هذا السياق يرى تيرنر Turner أحد رُوَادِ الْإِتِّجَاهِ التَّفَاعُلِيَّ الرَّمُزِيَّ "بأنّ علاقتنا بالأشياء المحيطة بنا تعتمد على تقييمنا لها عن طريق تحويلها إلى رموز، وهذه الرموز قد تكون إيجابية أو سلبية بالنسبة لنا اعتماداً على خبراتنا وتجربتنا معها، فإذا كانت إيجابية، فإننا نكون تفاعلاً قوياً وحيّاً لنا بحيث ننجذب معها وتنجذب لنا"⁽⁵⁾.. ويتجلى هذا التأكيد على الطابع الرمزي للوجود الإنساني في مذهب عالم الأنثروبولوجيا الإسكتلندي فيكتور تيرنر Victor Turner- أحد رُوَادِ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمُزِيَّةِ - بقوله المشهور: "إنّ الإنسان مُحاطٌ بِغَابَةِ مِنَ الرُّمُوزِ، فَالرَّمُزِيُّ يَشْغَلُ حِزْبًا كَبِيرًا فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ، فَهُوَ يَحْضُرُ بِاسْتِمْرَارٍ فِي كُلِّ

1- جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، الألوكة، الطبعة الأولى، 2015، ص 93.

2- أنتوني غيدنز أو البارون غيدنز ((Anthony Giddens) (ولد في لندن في 18 يناير 1938) عالم اجتماع إنجليزي معاصر، اشتهر بنظريته السوسولوجية الهيكلية والكلانية (Theory of structuration). يعد غيدنز أحد أبرز علماء الاجتماع المعاصرين. نشر ما لا يقل عن 34 كتاباً (بمعدل كتاب واحد سنوياً تقريباً)، ترجمت إلى ما لا يقل عن 29 لغة. من مؤلفاته «الطريق الثالث: تجديد الديمقراطية الاجتماعية» و«نقد معاصر للمادية التاريخية».

3- السيميائية أو السيميولوجيا (semiology) (Semiology) علم العلامات: علم يدرس أنساق العلامات والأدلة والرموز، سواء أكانت طبيعية أم صناعية. ومن الرواد المؤسسين لهذا العلم، هناك فرديناند دي سوسير (Ferdinand De Saussure) وشارل ساندرز بيرس (Charles Sanders Pierce). وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Semeion التي تعني Signe أي العلامة. وكلمة السيميائية في العربية مشتقة من الجذر اللغوي سوم والسومة والسيم والسيما والسيما والسيما والسيما والسيما. والسيما كما يعرفها دي سوسير هي علم يدرس العلامات والإشارات داخل الحياة الاجتماعية وهو يشكل منهجا في فهم المجتمع وتحليل قضاياه واكتشاف معانيه. وباختصار فإن السيمولوجيا هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون، ويدرس بالتالي توزيعها ووظائفها الداخلية والخارجية.

4- نقلا عن: جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، المرجع نفسه، ص 94.

5- نقلا عن: كشرود، فاطمة الزهراء وبو عمارة العربي، نظرية التفاعلية الرمزية، مرجع سابق، ص 163.

تفاعلاتنا الاجتماعية، فممارساتنا الطقوسية الواقعية منها والإفراضية متخمة بمنظومات رمزية تتحدد كبنية لإنتاج الاجتماعي، وكألية صميمية لإعادة إنتاجه وبناءه مجدداً⁽¹⁾.

ويمكن تعريف التفاعل الرمزي، تأسيساً على ما تقدم، بأنه صيغة "تفاعل رمزي أصيل" يقوم بين الأفراد، ضمن نسق مجتمعي معين، ويظهر ذلك التفاعل في مجموعة من السلوكيات التي يقوم بها فاعل ما، في علاقة بالسلوك الذي يصدر عن الفاعل الآخر. وتعبير آخر، تصدر عن الذوات المتبادلة مجموعة من الأفعال وزدود الأفعال في تماثل مع بنية المجتمع. وتتخذ هذه الأفعال معاني ودلالات رمزية متنوعة تستلزم الفهم والتأويل⁽²⁾. واستناداً على هذا التعريف يمكن القول: إن التفاعل الرمزي يشكل إطاراً نظرياً لنمط من السوسيولوجيا التي تبحث في الطبيعة الرمزية للحياة الاجتماعية، وتتحرى الطريقة التي يتم بها التفاعل الاجتماعي من خلال الرموز القائمة في الثقافة الاجتماعية السائدة⁽³⁾.

3- جذور التفاعلية الرمزية:

تعود نظرية التفاعل الرمزي بجذورها إلى علم الاجتماع التأويلي لعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (1864-1920)، الذي كان أول من رسخ منهجية الفهم والتأويل في علم الاجتماع، وأصل لعقيدة سوسيولوجية تعتمد جدلية التفاعل بين ثلاثية: الفهم، والدلالة، والمعنى، في تفسير الظواهر الاجتماعية وتأويلها. وقد أقر في سياق هذه الرؤية أن الأفراد يتصرفون بناءً على تفسيرهم الخاص لما يعنيه العالم من حولهم.

وتأسيساً على هذه الرؤية انطلق ليؤسس منهجية الأنماط المثالية كمنطلق منهجي أصيل في تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً يقوم على المعنى والدلالة. كما ساهم في بناء النظرية عالم الاجتماع الألماني جورج سيميل (Gorge Simmel: 1858-1918)⁽⁴⁾ الذي أسس نظرياً وفكرياً لأطروحات التفاعل الاجتماعي، وشيّد منهجاً سوسيولوجياً لتحليل التفاعلات الإنسانية في مؤلفه «علم الاجتماع: أشكال التنشئة

1- عبد الرحيم العطري، سوسيولوجية الحياة اليومية: الرمزي أفقا للتفكير، دفاتر العلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2018، ص11.

2- جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، الألوكة، الطبعة الأولى، 2015، ص 92.

3- Aksan, Nilgun, Buket Kısac, Mufit Aydın, and Sumeyra Demirbuken. 2009. "Symbolic Interaction Theory." Procedia, Social and Behavioral Sciences 1(1):902-4.

4- جورج سيميل (George Simmel) (1858-1918)، عالم اجتماع وفيلسوف ألماني. ويعد سيميل واحداً من جيل علماء الاجتماع الألمان الأول: وضع منهجه للكانطية الجديدة. وقد تساءل سيميل «ما هو المجتمع؟» في إشارة مباشرة لسؤال الفيلسوف الألماني كانط «ما هي الطبيعة؟»، بالإضافة لتقديمه تحليلات رائدة للفردية الاجتماعية والتفتت. ناقش سيميل الظواهر الاجتماعية والثقافية إما عن طريق «الشكل» أو «المحتوى» إذ يصبح الشكل محتوى والعكس بالعكس مع مرور الوقت، بحسب السياق. كان رائداً لأساليب التفكير البنوية في العلوم الاجتماعية. ويعد من أهم رواد علم الاجتماع الحضري والتفاعل الرمزي وتحليل الشبكات الاجتماعية.

الإجتماعية»⁽¹⁾ الذي تضمن تصورات سوسولوجية تُفيد بأن الإنسان يستطيع عزل شكل التفاعلات الإنسانية عن مضامينها، وقد ركز في هذا الكتاب على الطابع السيكولوجي - أي على التفاعل النفسي بين الأفراد- في فهم الظواهر الاجتماعية⁽²⁾. ويؤكد سيميل في هذا السياق على أن التفاعل بين الوجود المادي والوجود الروحي يبقى قائماً إلى أن يبلغ أوجه في وحدة كلية للوجود، وعلى هذا الأساس يستنتج أن الحياة الدينية تُفسر مختلف ظواهر الحياة الإنسانية برمتها، وتُشكل مدخلاً سوسولوجياً بعيد الأغوار في فهم الحياة الاجتماعية في مختلف تجلياتها.

ومن الواضح في هذا السياق أن سيميل يؤكد أهمية التفاعلات الاجتماعية ودورها الهائل في تشكيل الحياة والمجتمع، ويتضح ذلك من خلال تعريفه لعلم الاجتماع بأنه "العلم الذي يدرس التفاعل بين الأفراد داخل الحياة المجتمعية"، أي: دراسة الروابط ومختلف التفاعلات والعلاقات التواصلية الموجودة بين الأفراد ضمن بنية المجتمع، وفهم معنى تلك التفاعلات وتأويلها"⁽³⁾. وفي هذا المسار يقول سيميل "يتبادل الأفراد النظرات، يغارون من بعضهم، يأكلون سوياً، يتبادلون الرسائل، يشعرون تجاه بعضهم بالكراهية أو المحبة، يعترفون بالجميل... إلخ، آلاف الأفعال، المؤقتة أو الدائمة، الواعية أو اللاواعية، السطحية السريعة أو الغنية بنتائجها... إلخ، تربطنا الواحد بالآخر، وهي التي ترعى صلابته الحياة المجتمعية ومرونتها، وتنوعها ووحدها وتماسكها". ويستطرد في قوله: "إن التنظيمات المجتمعية الكبرى، والأنساق المجتمعية الكبرى التي تتضمنها فكرة المجتمع ليست أكثر من أساليب وطرائق ووسائل للحفاظ، في أطر مجتمعية باقية ومستقلة، على الأفعال المباشرة التي تربط الأفراد بعضهم ببعض"⁽⁴⁾. وقد أسهم سيميل في إغناء نظريته وتطويرها من خلال دراسته للتفاعلات الاجتماعية التي تنعكس في حقل الميكروسوسولوجيا وديناميكية الجماعة، ومن خلال تركيزه على أنماط العمليات الاجتماعية القائمة على أساس تفاعلي في المجتمع. وقد ترك ميد تأثيراً واضحاً ومباشراً في مدرسة شيكاغو، ولا سيما في الرواد الأوائل أمثال روبرت إرزابارك، ووليام طوماس، وجون هرتز ميد.

ويبدو واضحاً أن التفاعلية الرمزية قد تأثرت كثيراً بالنزعة الفلسفية البرغماتية، كما تجلت في فكر جون ديوي وكولي ووليم جيمس وشارل بيرس. ويشار، في هذا السياق، إلى التأثير الكبير لمؤسس النزعة البرغماتية المفكر الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce-1939-1914)⁽⁵⁾ الذي شيد

1- George Simmel, , Soziologie: Untersuchungen über die Formen der Vergesellschaftung. Berlin: Duncker & Humblot.

2- George Simmel: Sociologie, Etude sur les formes de la socialisation, Paris, P. U.F. F1999.

3- جميل حمداوي، جورج زيميل والسوسولوجيا التفاعلية، جامع الكتب الإسلامية، 2023/3/13، <http://bitly.ws/BwxC>.

4- نقلا عن: جميل حمداوي، جورج زيميل والسوسولوجيا التفاعلية، المرجع السابق.

5- تشارلز ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce) فيلسوف وعالم منطق وعالم رياضيات أمريكي، (1839-1914) يطلق عليه في بعض الأحيان لقب "أب البراغماتية أو العملائية"، وهو أحد أبرز وأقدم مؤسسي نظرية السيميائية في الفكر والفلسفة. يعتبر تشارلز ساندرز بيرس هو مؤسس الذرائعية، وأول من ابتكر كلمة البراغماتية في الفلسفة المعاصرة، وأول من استخدم هذا اللفظ عام 1878 وذلك في مقال نشره في عدد يناير من تلك السنة- بإحدى المجلات العلمية تحت عنوان «كيف نوضح أفكارنا» وفي هذا المقال،

نَظَرِيَّتُهُ السِّمِّيَّائِيَّةَ (Semiology) ¹، فَجَعَلَهَا مَصْدَرًا ثَرًا لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ فِي أَكْثَرِ فُصُولِهَا عُمُقًا وَفِي أَعْمَقِ مَلَامِحِهَا صَلَابَةً. وَمَنْ يَتَأَمَّلُ بَعْمَقِي سَيَجِدُ بَأَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ قَدْ نَهَلَتْ مِنْ مَعِينِ السِّمِّيَّائِيَّةِ (عِلْمِ الدَّلَالَةِ) الَّتِي أَصَلَهَا بِيرْسُ وَاتَّسَمَتْ بِأَطْيَافِهَا، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَيْضًا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي اعْتَمَدَتْهَا التَّفَاعُلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ مُسْتَقَاءَةٌ مِنْ مَعِينِ هَذِهِ السِّمِّيَّائِيَّةِ، مِثْلُ: الْعَلَامَةِ (الرَّمْزِ)، وَقَدْ عَرَفَهَا (أَيَّ الْعَلَامَةِ) "بِأَنَّهَا شَيْءٌ يَنْوُبُ لِشَخْصٍ مَا عَنْ شَيْءٍ مَا بِصِفَةِ مَا، أَيْ أَنَّهُا تَخْلُقُ فِي عَقْلِ الشَّخْصِ عِلَامَةً مُعَادَلَةً أَوْ رُبَّمَا عِلَامَةً أَكْثَرَ تَطَوُّرًا، بِحَيْثُ تَنْدَرُجُ الْعِلَامَةُ وَفَقَّ مُسَمِّيَاتٍ أَطْلَقَهَا بِيرْسُ لِتَمَثِّلَ الشَّكْلَ الدَّلَالِيَّ الْمُتَوَلَّدَ عَنْ سِمَةِ الشَّيْءِ، وَتَنْوُبَ عَنْهُ، ضَمْنَ صَبْرُورَةٍ دَلَالِيَّةٍ لَهَا أُبْعَادٌ فِكْرِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ الْأَطْرَافِ" ⁽²⁾. وَمِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ مَفَاهِيمَ الْعِلَامَةِ وَالرَّمْزِ وَالذَّلَالَةَ وَالذَّالِ وَالْمَدْلُولَ وَالذَّوَالِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا بِيرْسُ فِي نَظَرِيَّتِهِ السِّمِّيَّائِيَّةِ تُشَكِّلُ مَصْدَرًا ثَرًا لِلْمَفَاهِيمِ الْمُوظَّفَةِ فِي التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ.

وَيَمْتَدُّ تَأْيِيرُ النَّزْعَةِ الْبِرْغَمَاتِيَّةِ فِي التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ بِالْمَفَاهِيمِ الَّتِي وَظَّفَهَا وَليَم جيمس (William James) (1842 - 1910) ⁽³⁾ فِي نَظَرِيَّتِهِ الْبِرْغَمَاتِيَّةِ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ الْفَضْلُ فِي تَأْصِيلِ الْبِنْيَةِ الْمَفَاهِيمِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِنَظَرِيَّةِ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ مِنْ مِثْلِ: مَفْهُومِ الْعَادَةِ Habit، وَالْغَرِيْزَةِ (Instinct) وَمَفْهُومِ الذَّاتِ (Self)، وَمَفْهُومِ الشُّعُورِ أَوْ الْوَعْيِ (Consciousness)، وَهِيَ مِنْ أُبْرَزِ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي تَعْتَمِدُهَا التَّفَاعُلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ ⁽⁴⁾.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ وليم جيمس أَكَّدَ عَلَى مَفْهُومِ الْعَادَةِ بِوَصْفِهِ قُوَّةً تُؤَسِّسُ لِعَمَلِيَّةِ تَشْكِيلِ الْكَائِنِ الْإِنْسَانِيِّ وَتَحْدِيدِ أَنْمَاطِهِ السُّلُوكِيَّةِ بِدِقَّةٍ فَائِقَةٍ، وَهِيَ الْقُوَّةُ نَفْسُهَا الَّتِي تُمَكِّنُ الْفَرْدَ مِنْ اِكْتِسَابِ طَبِيعَةٍ جَدِيدَةٍ هِيَ بِمِثَابَةِ الطَّبِيعَةِ الثَّانِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، كَمَا تُشَكِّلُ الْأَدَاةَ الْمُنْهَجِيَّةَ الَّتِي تُمَكِّنُ الْبَاحِثِينَ مِنْ تَفْسِيرِ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ وَقَهْمِهِ وَإِدْرَاكِ دَلَالَتِهِ وَمَعَانِيهِ ⁽⁵⁾. وَمِنْ مَقُولَاتِهِ الشَّهِيْرَةِ الَّتِي تُشَكِّلُ شِعَارًا لِلنَّزْعَةِ التَّأْمَلِيَّةِ قَوْلُهُ الْمَشْهُورُ: "إِنَّ

يذهب بيرس إلى أن نحدد السلوك الذي يمكن أن ينتج عنها، فليس السلوك بالنسبة لنا سوى المعنى الوحيد الذي يمكن أن يكون لها. هو صاحب فكرة وضع «العمل» مبدأ مطلقاً؛ في مثل قوله: إن تصورنا لموضوع ما هو إلا تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر.

1- السيمولوجيا أو السيميائية (Semiology) معناها اصطلاحاً علم الإشارات أو علم الدلالات. تعود السيمولوجيا في أصلها الغربي إلى اللغة اليونانية، فهي مركبة من كلمتين هما (Sémeion): وتعني العلامة، و (Logos) وتعني علم. وجاء تعريفها في «قاموس النقد الأدبي» أن السيمولوجيا بمعناها الضيق (في الطب) أو الواسع (في العلوم الإنسانية) ليست سوى دراسة للعلامات داخل نظام معين، وعرفها دي سوسير بأنها «العلم الذي يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية». ويعود الفضل في نشأة علم السيمولوجيا إلى مدرستين، هما مدرسة شارلز ساندرز بيرس الذي أطلق على هذا العلم اسم السيميوتيقا (Sémiotique) وهو أكثر ارتباطاً بالفلسفة، والتزم به الأمريكيون من بعده، ومدرسة فرديناند دي سوسير الذي اقترح اسم السيمولوجيا (Semiology) والتزمه الأوروبيون من بعده.

2- ليث بني نصر، السيميائية عند بيرس، موقع موضوع، 29 مارس 2022. <http://bitly.ws/BsFj>

3- ويليام جيمس (William James) (1842. 1910) فيلسوف وعالم نفس أمريكي، وأحد أكثر الفلاسفة نفوذاً في الولايات المتحدة الأمريكية و يشار إليه بوصفه "مؤسس علم النفس الأمريكي" ومن مؤسسي النزعة البرغماتية في الفلسفة التي وضع مبادئها في كتابه المشهور «البرجماتية» Pragmatism، ومن أشهر كتبه أيضاً: «مبادئ علم النفس» (1890)، و«إرادة الاعتقاد» (1897)، و«الفلسفة العملية» (1907)، و«معنى الحقيقة» (1909)، و«مقالات في التجريبية المتطرف» (1912).

4- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الرامخ ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2008. ص 148.

5- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الرامخ ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة، المرجع السابق، ص 148.

الإكتشاف الأعظم الذي شهده جيلي، والذي يُقارن بالثورة الحديثة في الطب كثورة البنسلين هو معرفته البشر أن بمقدورهم تغيير حياتهم عبر تغيير مواقفهم الذهنية⁽¹⁾. وهذه المقولة تدخل في صلب نظرية التفاعل الرمزي، فالأفكار والأذهان والتصورات هي التي تُغيّر العالم، بل تُصنعه صنعا، كما يرى جيمس وهو الشاعر الأساسي للتفاعلية الرمزية.

وقد شهدت هذه النظرية تطورها في قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو في عشرينيات القرن الماضي، ويُعدُّ كلُّ من جورج هربرت ميد (G.H. Mead-1863-1931) وهربرت بلومر (H. Blumer-1900-1986) وروبرت بارك (Robert Park-1864-1944)⁽²⁾ ووليم إسحاق توماس (W. I. Thomas-1863-1947) وإرفينغ كوفمان (Erving Goffman-1922-1982)، من أبرز رواد هذه النظرية ومؤسسيها.

ويُشار أيضاً إلى عددٍ من رواد هذه النظرية المتأخرين مثل هورارد بيكر (Howard Becker)، وأنسيلم ستروس (Anselm Strauss)، وفريدسون (Freidson)، وإفريت هاوث (Everett Hughes)، ومانفرد كون (Manferd Kuhn) (1911-1963) وكذلك كلُّ من ميلتزر (Meltzer)، وهيرمان (Herman)، وجلاسر (Glaser)، وستراوس (Strauss)، وغيرهم.

ويمكن القول اختصاراً: إنَّ التفاعلية الرمزية وُلدت في مدرسة شيكاغو في منتصف القرن العشرين، ثمَّ انتشرت في أوصاف الولايات المتحدة الأمريكية، وقد وُظفت منهجياً في رصد العلاقات التفاعلية الاجتماعية القائمة بين أفراد المجتمع. وهي تقوم على فكرة أساسية مفادها أن المعاني تولد في معتك التفاعل الرمزي فيما بين الأفراد أنفسهم، وفيما بينهم وبين مظاهر الوجود المادي، وأنَّ هذه المعاني تتغيَّر وتتغيَّر وفق وضعية التأويلات التي يُعطيها الأفراد لها⁽³⁾.

4- التفاعلية الرمزية في مواجهة البناية الوضعية:

شهدت السوسيولوجيا الأمريكية في نهاية الخمسينيات هيمنة واضحةً لتيارين أساسيين هما: النظرية البنائية بزعامة عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز، والنظرية الأمبيريقية بزعامة عالم الاجتماع المعروف بول لازار سفلد (Paul Felix Lazars Feld: 1901-1967). وفي مواجهة هذين الاتجاهين نشأت التفاعلية الرمزية في مدرسة شيكاغو كردة فعلٍ ضدهما، وضدَّ كلِّ أشكال الوصاية التي فرضتها السوسيولوجيا البنائية الوضعية في أمريكا، وفي غيرها من البلدان⁽⁴⁾.

1- انظر: وليم جيمس، موسوعة المعرفة. <http://bitly.ws/BsIb>

2- روبرت إيزرا بارك (Robert Ezra Park) (14 فبراير 1864 – 7 فبراير 1944)، عالم اجتماع أمريكي معروف ويعد أحد أهم الشخصيات تأثيراً في علم الاجتماع الأمريكي. وإليه يعود الفضل في الانتقال بعلم الاجتماع الأمريكي من مجرد كونه فرعاً فلسفياً جامداً إلى علم حيوي متأصل في دراسة السلوك البشري.

3- جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، الألوكة، الطبعة الأولى، 2015. ص 98.

4- فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه، علم الاجتماع: من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة إياس حسن، دمشق: دار الفرق للطباعة والنشر والتوزيع، 2010. ص 115.

وفي معرض المواجهة والرفض للاتجاهات البنائية والماركسيّة، انطلقت التفاعليّة الرمزية لتشكّل بذاتها تبولورا سوسولوجياً متطوراً للاتجاهات التأويلية في الفلسفة وعلم الاجتماع إزاء الاتجاهات الوضعية والماركسيّة التي تعتمد المناهج الكميّة والتفسير القانوني للظواهر الاجتماعيّة. ومن المعروف أنّ الاتجاهات الوضعية (البنوية والماركسيّة) تتناول الظواهر الاجتماعيّة، وتقوم بديراستها وفق المناهج العلميّة المعتمدة في العلوم الطبيعيّة، وتسعى إلى اكتشاف القوانين التي تحكمها. وعلى خلاف ذلك يتجنّب أنصار التفاعليّة الرمزية المناهج الوضعية، ويعتمدون المنهج التأويلي الذي يقوم على إدراك المعاني الرمزية، واستجواب الدلالات السيميائية الكامنة في عمق الظواهر الاجتماعيّة، والعمل على تأويلها دون الخوض في قانونياتها الشكلية الخارجية. ويؤسّس التفاعليون الرمزيون رؤيتهم هذه من مطلق الاعتقاد بأن جوهر الفعل الاجتماعيّ يبقى حصيناً ضد الضبط المنهجيّ العلميّ، عصبياً على الفهم وفق المنهجيات التي تعتمد العلوم الطبيعيّة، ويتبنّى على ذلك أنّهم يؤكدون الطابع المعنويّ للمجتمع، وينظرون إليه بوصفه روحاً ومعنى ودلالة، وهم، في سياق ذلك، يرفضون النظر إلى المجتمع بوصفه كياناً مادياً موضوعياً متشبيهاً، كما يراه الوضعيون في جملتهم.

وعلى خلاف الاتجاهات الوظيفية والماركسيّة تأخذ التفاعليّة الرمزية صورة اتجاه فكريّ يقوم على رفض المناهج العلميّة التي تعتمد العلوم الاجتماعيّة بحثاً في قانونية الظواهر الاجتماعيّة وفق المنهجيات العلميّة الراسخة في العلوم الطبيعيّة، فالظواهر الاجتماعيّة وفقاً للاتجاهات الوضعية والماركسيّة يمكن أن تدرس على نحو علميّ، ويمكن للعلوم الاجتماعيّة أن تضع لهذه الظواهر قواعدها وقوانينها الثابتة. وعلى خلاف هذه التوجهات المنهجية الوضعية تتبنّى نظرية التفاعل الرمزيّ المنهج التأويلي الذي ظهرت مقدماته المنهجية الأولى في علم الاجتماع الفيبري الذي يعتمد على تحليل المعاني والدلالات في الظواهر الاجتماعيّة دون الخوض في قانونياتها الشكلية، وينطلق هذا الاعتقاد من النظرية التي تقول: إنّ جوهر الفعل الاجتماعيّ يبقى حصيناً ضد القولبة الموضوعية أو الوضعية التي تعتمد على منهجيات العلوم الطبيعيّة. فالحقيقة الاجتماعيّة تتأصل في جوهرها بوصفها حقيقة رمزية معنوية دلالية لا يمكن حصرها في قوانين، بل يمكن فهمها وتأويلها ورصد معانيها.

وعلى هذا الأساس يرفض التأويليون الرمزيون توظيف مناهج العلوم الطبيعيّة في تناولهم للظاهرة الاجتماعيّة، لأنّ الاتجاه الكمي لا يستطيع أن يختبر السلوك الإنسانيّ، ويجرّده في قوانين، وأنّ فهم السلوك الإنسانيّ الاجتماعيّ يجب أن يعتمد على المناهج النوعية التأويلية، وهي المناهج التي تعتمد في اكتشاف الدلالات والمعاني الجوهرية الكامنة في عمق السلوك الإنسانيّ. وعلى هذا الأساس ينطلق أصحاب التأويل الرمزيّ بتأصيل مناهجهم العلميّة التي تعتمد على إجراءات واستراتيجيات منهجية مغايرة لما يستخدمه الوضعيون في أبحاثهم مثل مناهج دراسة الحالة والملاحظة الحية للفعل الاجتماعيّ، وتحليل مضامين النصوص والمقابلات الشفوية المتعمقة، ويشمل هذا التوجه المنهجيّ منهجية تعايش الباحث وإندماجه في الموقف الاجتماعيّ الذي يقوم بديراسته، ومشاركته في الفعاليّة الاجتماعيّة للظاهرة التي يدرسها، وهو المنهج الذي نجده راسخاً في الدراسات الأنتروبولوجية الذي يفرض على الباحث أن ينغمس في الظاهرة المدروسة،

وَأَنْ يَتَمَثَّلَ مُخْتَلِفَ فَعَالِيَّاتِ الْجَمَاعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَدْرُسُهَا مُشَارِكًا فِي طُقُوسِهَا بِوَاسِطَةِ التَّعَايِشِ الْحَقِيقِيِّ الْفَعَالِ مَعَ مُعْتَقَدَاتِهَا وَتَقَاتِفَاتِهَا، كَيْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى فَهْمِ أَدَقِّ تَفَاصِيلِ حَيَاةِ الْجَمَاعَاتِ الْمَدْرُوسَةِ بِدَلَالَاتِهَا وَمَعَانِيهَا وَرُؤُوسِهَا.

وَيَنْطَلِقُ أَصْحَابُ الْإِتِّجَاهَاتِ الرَّمُوزِيَّةِ التَّأْوِيلِيَّةِ فِي مَنْهَجِيَّتِهِمْ هَذِهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْجَانِبِ الدَّاخِلِيِّ وَالْجَانِبِ الْخَارِجِيِّ لِلْحَقِيقَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِذَا كَانَ يُمَكِّنُ لِلْمَنَاهِجِ الْوَضْعِيَّةِ أَنْ تُدْرِكَ الْجَانِبَ الظَّاهِرِيَّ - الَّذِي يَبْدُو مِنْ الْخَارِجِ - فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى هَذِهِ الْمَنْهَجِيَّاتِ الصَّارِمَةِ أَنْ تَتَوَعَّلَ فِي جَوْهَرِ الْحَقِيقَةِ وَفِي عُمُقِهَا، أَيْ فِي الْجَانِبِ الدَّاخِلِيِّ الْمُسْتَتِرِ بِالْمَعْنَى وَالذَّلَالَاتِ، وَتَتَأَسَّسُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ إِكْتِشَافَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الدَّاخِلِيَّةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَتِمَّ مِنْ خِلَالِ التَّفَاعُلِ مَعَ هَذَا الْجَانِبِ وَفَهْمِهِ بِالْمَعَايِشَةِ وَالْإِنْدِمَاجِ وَالتَّحْلِيلِ الرَّمُوزِيِّ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْبَاحِثِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُدْرِكَ الظَّاهِرَةَ الْإِجْتِمَاعِيَّةَ أَنْ يَتَعَايَشَ مَعَهَا وَيَدُوبَ فِيهَا، وَيُصْبِحَ جُزْءًا مِنَ الْحَقِيقَةِ الْمَدْرُوسَةِ، أَوْ عُنْصُرًا فِي الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَدْرُسُهَا لِكَيْ يَتِمَكَّنَ مِنْ فَهْمِهَا وَإِدْرَاكِهَا فِي أَعْمَقِ مَعَانِيهَا وَدَلَالَاتِهَا.

فَالْحَقِيقَةُ الْإِجْتِمَاعِيَّةُ، كَمَا يَرَاهَا أَنْصَارُ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمُوزِيَّةِ، تَتَّصَلُ فِي جَوْهَرِهَا بِوَصْفِهَا حَقِيقَةً رَمُوزِيَّةً مَعْنَوِيَّةً دَلَالِيَّةً لَا يُمَكِّنُ حَصْرُهَا فِي قَوَانِينِ عَامَّةٍ، أَوْ ضَبْطُهَا فِي مُعَادَلَاتٍ رِيَاضِيَّةٍ مَفْهُومَةٍ، أَوْ رَصْدِهَا بِأَرْقَامٍ إِحْصَائِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ، بَلْ هِيَ حَقِيقَةٌ ذَاتِيَّةٌ يُمَكِّنُ فَهْمَهَا وَتَأْوِيلُهَا وَرَصْدُ مَعَانِيهَا وَإِكْتِشَافُ مَقَاصِدِهَا بِإِعْتِمَادِ الْمَنَاهِجِ الْكَيْفِيَّةِ الرَّمُوزِيَّةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى اسْتِطْلَافِ الْمَعْنَى وَإِكْتِشَافِ الذَّلَالَاتِ.

وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ، إِلَى أَنَّ الصِّرَاعَ الْفِكْرِيَّ بَيْنَ مَنْهَجِيَّتِي التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ السَّبَبِيِّ كَانَ قَدْ بَلَغَ أَوْجُهُ فِي زَمَنِ مَآكْسِ فَيْبِرُ رَائِدِ الْإِتِّجَاهِ التَّأْوِيلِيِّ فِي عِلْمِ الْإِجْتِمَاعِ، الَّذِي رَفَضَ مُعْطِيَّاتِ الْمَنْهَجِ الْوَضْعِيِّ عِنْدَ كُلِّ مِنْ مَارْكْسِ وَأَوغست كونت و دوركهايم وَهَربرت سبنسر، مُؤَكِّدًا عَلَى الْإِتِّجَاهِ التَّأْوِيلِيِّ الَّذِي يَقُومُ بِفَهْمِ الظَّاهِرَةَ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَتَأْوِيلِهَا تَأْوِيلًا يَعْتَمِدُ عَلَى دَلَالَاتِهَا وَمَعَانِيهَا. وَمِنَ الْوَاضِحِ تَمَامًا أَنَّ الْإِتِّجَاهَ الرَّمُوزِيَّ يُشَكِّلُ إِمْتِدَادًا طَبِيعِيًّا مُتَطَوِّرًا لِلإِتِّجَاهِ التَّأْوِيلِيِّ الَّذِي أَصَلَّهُ عَالِمُ الْإِجْتِمَاعِ الْأَلْمَانِيُّ مَآكْسِ فَيْبِر، كَمَا يُمَثِّلُ نَمَطًا جَدِيدًا مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَوْظِيفِ الرُّمُوزِ وَالْمَعْنَى وَالذَّلَالَاتِ فِي تَفْسِيرِ الظُّوَاهِرِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ.

وعلى خلاف النظريات الوضعية الكبرى (الماركسية والبنوية) التي تبحث في تأثير المؤسسات والظواهر الاجتماعية الكلية في الأفراد بوصفهم نتاجًا للمجتمع ومؤسساته الكبرى، تبحث التفاعلية الرمزية في تأثير الفرد في المجتمع بوصفه صانعًا للوجود وصانعًا للتاريخ، وإذا كانت النظريات الوضعية الكبرى تبحث في تأثير العام في الخاص، والكلي في الجزئي والأعلى في الأدنى، وفي تأثير المجتمع في الفرد، فإن التفاعلية، وعلى العكس من ذلك، تبحث في تأثير الخاص في العام، والجزئي في الكلي، والأدنى في الأعلى، وفي تأثير الفرد في المجتمع.

وَإِذَا كَانَتْ الْبِنَائِيَّةُ تَرَى أَنَّ الْمُجْتَمَعَ هُوَ الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي الدَّاتِ، فَإِنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، تَرَى أَنَّ الدَّاتِ هِيَ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي الْمُجْتَمَعَ، بِمَعْنَى أَنَّ النَّاسَ هُمُ الَّذِي يُؤَسِّسُونَ الْمُجْتَمَعَ بِأَفْعَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ وَسُلُوكِيَّاتِهِمْ الْوَاعِيَّةِ وَالْهَادِفَةِ. وَيُسَمَّى هَذَا الْمَنْظُورُ بِالتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمُوزِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْفُرَادَ، فِي تَوَاصُلِهِمْ وَتَفَاعُلِهِمْ، يَسْتَعْدِمُونَ الرُّمُوزَ وَالْإِشَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ وَالْأَيْقُونَاتِ وَالْإِيمَاءَاتِ. وَمِنْ نَمٍّ، تَتَّخِذُ أَفْعَالُهُمْ طَبَاعًا نَسَقِيًّا زَاخِرًا

بِالدَّلَالَاتِ السِّمِّيَّاتِ وَالرَّمْزِيَّةِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْفَهْمَ وَالتَّأْوِيلَ. وَتَعْدُ اللُّغَةُ أَهَمَّ عُنْصُرٍ لَدَى هَؤُلَاءِ، مَا دَامَتْ تُؤَدِّي دَوْرًا تَوَاصُلِيًّا وَرَمْزِيًّا⁽¹⁾.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْتَلَقِ، يُرَكِّزُ أَصْحَابُ التَّأْوِيلِ الرَّمْزِيِّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْفَرْدِ وَدَوْرِهِ الْجَوْهَرِيِّ فِي تَشْكِيلِ ذَاتِهِ، وَفِي تَشْكِيلِ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِهِ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَنْطَلِقُونَ لِلْبَحْثِ فِي تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ لِلْفَرْدِ، وَفِي تَفَاعُلَاتِهِ الرَّمْزِيَّةِ مَعَ الْأَخْرَيْنِ الَّتِي تُؤَدِّي، فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، إِلَى تَشْكِيلِ التَّكْوِينَاتِ وَالظَّوَاهِرِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي أَنْ وَاحِدٍ. فَالْمُجْتَمَعُ وَفَقًا لِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ يَأْخُذُ هَيْئَةً تَفَاعُلِيَّةً زَمْرِيَّةً بَيْنَ الْأَفْرَادِ، وَيُؤَدِّي هَذَا التَّفَاعُلُ إِلَى تَشْكِيلِ ذَوَاتِ الْأَفْرَادِ وَتَنْمِيطِ هُويَاتِهِمْ وَصَوْنِ انْتِمَائِهِمْ، وَيَنْتَهِي إِلَى تَوْلِيدِ النَّسِيجِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَلْفُهِمْ.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْتَلَقِ، يَعْمَلُ النَّاسُ، وَفَقًا لِلْمَنْظُورِ التَّفَاعُلِيِّ الرَّمْزِيِّ، عَلَى تَحْقِيقِ التَّرَابُطِ بَيْنَ الرُّمُوزِ وَالْمَعَانِي، ثُمَّ يَتَصَرَّفُونَ وَفَقًا لِهَذِهِ الْمَعَانِي وَالرُّمُوزِ لِيَشْكَلُوا بِذَلِكَ نَسِيجَ الْمُجْتَمَعِ وَظَوَاهِرَهُ وَمَضْمُونَهُ الْاجْتِمَاعِيَّ. فَالْكَلِمَاتُ الْمَنْطُوقَةُ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ تَفْعَلُ فِعْلَهَا بِوَصْفِهَا رُمُوزًا تَفِيضُ بِالْمَعَانِي وَالِدَّلَالَاتِ؛ فَالْكَلِمَاتُ رُمُوزٌ تَنْطَوِي عَلَى مَعَانِي يُدْرِكُهَا "الْفَرْدُ الْمُرْسَل"، وَأَتْنَاءَ الْإِتِّصَالِ يُفْتَرَضُ أَنْ يُدْرِكَ "الْمُتَلَقِّي- الْمُخَاطَبُ" ذَاتَ الْمَعَانِي كَيْ تَتِمَّ عَمَلِيَّةُ التَّوَاصُلِ وَفَقَ الصِّغَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْكَلِمَاتِ لَيْسَتْ "أَشْيَاءً" ثَابِتَةً أَوْ رُمُوزًا مُتَصَلِّبَةً، بَلْ هِيَ رُمُوزٌ مَرْنَةٌ تَحْتَمِلُ صَبْرُورَةَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ عَلَى مَبْدَأِ النُّوَايَا وَالْمَقَاصِدِ. وَبِنَاءِ عَلَى ذَلِكَ تَأْخُذُ الْمُحَادَثَةُ بَيْنَ فَرْدَيْنِ أَوْ طَرَفَيْنِ صُورَةً تَفَاعُلِيَّةً زَمْرِيَّةً بَيْنَ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ عَبْرَ الرُّمُوزِ تَفْسِيرَ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِهِمْ بِاسْتِمْرَارٍ عَلَى مَبْدَأِ التَّغْيِيرِ الدِّينَامِيِّ فِي تَوْلِيدِ الدَّلَالَاتِ وَالْمَعَانِي.

وَمِنْ أَحَدِ أَهَمِّ الْعَوَامِلِ الَّتِي مَيَّزَتِ التَّفَاعُلَ الرَّمْزِيَّ عَنِ النَّظَرِيَّاتِ الْوَضْعِيَّةِ هُوَ تَرْكِيزُهَا عَلَى الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ، وَعَلَى التَّفَاعُلَاتِ الصَّغِيرَةِ الْجُزْئِيَّةِ الَّتِي تَتِمُّ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ كَمُنْتَلَقٍ لِفَهْمِ الظَّوَاهِرِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَأْوِيلِهَا، وَهَذَا التَّوَجُّهُ يَتَنَاقَضُ مَعَ النَّظَرِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْوَضْعِيَّةِ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى السُّلُوكِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِوَصْفِهِ فَعَالِيَّةً اجْتِمَاعِيَّةً تَتِمُّ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى، وَبِمُوجِبِ ذَلِكَ فَإِنَّ الْفَرْدَ يَشْكَلُ كِيَانًا مُنْفَعِلًا يَخْضَعُ لِتَأْثِيرِ الْمَوْسَّسَاتِ وَالظَّوَاهِرِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَهُوَ، فِي سِيَاقِ ذَلِكَ، لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ نِتَاجًا لَهَا. وَتَنْضِحُ هَذِهِ الصُّورَةُ فِي نَظَرِيَّةِ إِمِيلِ دُوركايمِ الَّذِي كَانَ يُرَكِّزُ عَلَى الظَّوَاهِرِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ، وَيَتَعَامَلُ مَعَهَا مِنْ مَنْظُورِ وَضْعِيٍّ وَعَلْمِيٍّ، دُونَ أَنْ يُعِيرَ الْفَرْدَ أَذْنَى إِهْتِمَامٍ، وَقَدْ أَكَّدَ دَائِمًا أَنَّ الْفَرْدَ نِتَاجُ الْمُجْتَمَعِ وَالتَّفَاعُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَتَجَاهِلَ دَوْرَ الْفَرْدِ وَقُدْرَتَهُ عَلَى إِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ فِي الْمُجْتَمَعِ أَوْ التَّأْثِيرِ فِيهِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ كَائِنٌ مُنْفَعِلٌ وَخَاضِعٌ لِلضَّرُورَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَذَلِكَ عَلَى خِلَافِ مَآكُسِ فِيبِرِ الَّذِي أَوْلَى الْفَرْدَ أَهَمِّيَّةً كَبِيرَةً فِي إِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ مُؤَكَّدًا عَلَى جَدَلِيَّةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ.

وَعَلَى خِلَافِ الرُّؤْيَةِ الْوَضْعِيَّةِ، يَرَى أَصْحَابُ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ أَنَّ الْفَرْدَ يَكُونُ صَانِعًا لَا مَصْنُوعًا، ذَاتًا لَا مَوْضُوعًا، فَاعِلًا لَا مُنْفَعِلًا. وَمِنْ هَذَا الْمُنْتَلَقِ تَتَمَيَّزُ التَّفَاعُلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ عَنِ النَّظَرِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْأُخْرَى بِالتَّرْكِيزِ عَلَى دَوْرِ الْفَاعِلِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْفَرْدِيِّ، وَذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ النَّظَرِيَّاتُ الْأُخْرَى

1- جميل حمودي، علم الاجتماع بين الفهم والتفسير، شبكة الألوكة، بوابة علم الاجتماع، 2019..

https://www.b-sociology.com/2019/04/pdf_13.html

(البنوية الوظيفية والماركسية) إلى الأفراد بوصفهم موضوعات مُنتجة سلبية للقوى الاجتماعية السائدة، ونتاجاً طبيعياً لمختلف مؤسساته وظواهره الكبرى. وباختصار يسعى أنصار التفاعل الرمزي إلى "تصوير الفرد باعتباره فاعلاً ومستقلاً ومُتكاملاً في تكوين عالمه الاجتماعي، وهم يؤكدون على أهمية التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع وبين الذات المتفاعلة في حضم التفاعل الاجتماعي.

وعلى خلاف الاتجاهات الوضعية التي تتسم بطبيعتها الماكروسوسولوجية (Macrosocology) التي تبحث في المجتمع وفق نظرة كلية شمولية تعتمد التفاعلية الرمزية منهجية السوسولوجيا المصغرة الميكروسوسولوجية (Microsociology) وتنطلق من الوحدات الصغرى (سوسولوجيا الحياة اليومية) في محاولة لفهم المجتمع والحياة الاجتماعية، وهذا يعني أنها تبدأ بدراسة سلوك الأفراد اليومي البسيط كمدخل لفهم النسق الاجتماعي. وتتركز على أنساق المواقف والأدوار التي تُشكل المجتمع. ويلاحظ النقاد أن التفاعلية الرمزية قد أخذت معالمها الواضحة، وتبلورت صورتها في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد ظهرت ملامح نشأتها الأولى في الفكر السوسولوجي الأمريكي تحديداً. وهي في تركيزها على علم الاجتماع اليومي وبنياته الذرية الصغرى تتميز عن المدارس السوسولوجية التي تركز على الوحدات الكبرى (أي الميكروسوسولوجي في مواجهة الماكروسوسولوجي)، ولا يخفى أن التفاعلية الرمزية استطاعت أن تجرح أنظمة منهجية جديدة وإستراتيجيات نظرية أصيلة في مجال البحث الدلالي والتأويلي في علم الاجتماع.

ويمكن أن نستنتج باختصار مقارن أن التفاعلية الرمزية، على خلاف التوجهات البنوية، تؤكد دور الفرد في تشكيل الأحداث الاجتماعية، وإذا كانت النظريات البنائية ترى أن المجتمع هو الذي يؤثر في الفرد، فإن التفاعلية ترى عكس ذلك، بأن الفرد هو الفاعل في التاريخ، وفي صوغ الحياة الاجتماعية. وهذا يعني من وجهة نظر التفاعليين الرمزيين أن الأفراد هم الذي يؤسسون المجتمع، ويشكلون ظواهره بأفعالهم وتصرفاتهم وسلوكياتهم الواعية والهادفة.

ومن نافلة القول أن أصحاب نظرية التفاعلية الرمزية لا ينكرون دور المجتمع وتأثيره في أفرادهم، ولكنهم يؤكدون دور الأفراد وفعاليتهم في بناء المجتمع ضمن سلسلة متواترة من الأفعال الرمزية المتشعبة بالمعاني والدلالات التواصلية.

ويمكن القول إختصاراً: إن التفاعلية الرمزية ترى - على خلاف الاتجاهات البنوية الوضعية - أن الذوات الفردية تشكل المجتمع في مسارات تفاعلها الرمزي، وأن الأفراد يؤسسون المجتمع والظواهر الاجتماعية بأفعالهم وتفاعلاتهم وسلوكياتهم التي تتسم بطابع الوعي المنظم الهادف.

5- المفاهيم الرئيسة للتفاعلية الرمزية:

عمل رواد التفاعلية الرمزية على صوغ منظومة من المفاهيم التي تشكل جوهر نظريتهم، ورسخوا عدداً آخر من المفاهيم الأساسية التي يمكن أن تعتمد في فهم الكيفيات التي تتم فيها عمليات التفاعل الرمزي. وقد أوضحنا في أكثر من سياق أن هذه المفاهيم تتحور حول الإنسان المنتج للرمز أو الإنسان بوصفه منتجاً للمعنى والدلالة. وتتحرك النظرية في مسار ثمانية مفاهيم أساسية، هي:

1- التفاعل Interaction: ويُشكّل مفهوم التفاعل أحد أهم المفاهيم في التفاعلية الرمزية، ويُعرف بأنه "سلسلة متبادلة ومستمرّة من الإتصالات بين فرد وفرد، أو فرد مع جماعة، أو جماعة مع جماعة" (1).

2- الرموز (Symbols): تُشكّل الرموز والعلامات جوهر النظرية التفاعلية، وهي "مجموعة من الإشارات المُصنّعة، يُستخدّمها الناس فيما بينهم لتسهيل عملية التواصل، وهي سمة خاصة في الإنسان. وتشمل عند جورج ميد اللغة، وعند بلومر المعاني، وعند غوفمان الإنطباعات والصّور الذهنية (2). وفي تعريف آخر مماثل تعني الرموز: "مجموعة الوسائل التي يستعملها الناس فيما بينهم لتسهيل عملية التواصل. وهي تشمل الإشارات والعلامات والأدوات والحركات والأصوات والإنطباعات والصّور الذهنية التي يصنعونها، وأهمها اللغة. ووفقاً لهذه النظرية، يُعلّق الناس معاني على هذه الرموز، ثم يتصرّفون بناءً على تفسيرهم الشخصي لها. ويظهر ذلك جلياً في المحادثات الشفوية (3).

3- المعاني (meanings): تُمثّل الأفعال نظاماً من الدلالات التي تعتمد في تأويل الرموز والأشياء والعالم، وهي التي تُعطي للرموز دلالتها، وتجعلها مفسّورة في الأذهان على مقاصد محدّدة، وهي صور ذهنية ترتبط بالرموز والأشياء، وهي أيضاً نسق من الأفكار التي ترتبط بالإشارات والعلامات والرموز.

4- المرونة (Flexibility): يُقصد بالمرونة قدرة الإنسان على التصرف بصورة مختلفة في مواقف مختلفة، وإن يكن قادراً على تداول المعاني والرموز بصيغ تتناسب مع الوضعيات الاجتماعية التي يعيشها والمواقف التي يجارها.

5- الوعي الذاتي (Self-Consciousness): هو مقدرة الإنسان على تمثّل الدور، فالتوقعات التي تكون لدى الآخرين عن سلوكنا في ظروف معينة، وهي بمثابة نصوص، "يجب أن نعيا حتى نمثلها، على حدّ تعبير جوفمان" (4).

6- الحتمية التفاعلية (Interactive determinism): يمكن تعريف مفهوم الحتمية التفاعلية، بأنها الوضعية الرمزية التي لا يمكن فهمها بمعزل عن غيرها، إذ ينبغي فهمها على أنها نتيجة للسياق الذي توجد فيه. فالشخص نفسه - على الرغم من أنّ صفاته الجوهرية لا تتغيّر - فإنه يُمكن أن يُنظر إليه على أنه أب من قبل طفله، وموظف من قبل رئيسه، وزوج من قبل زوجته، وناخب من قبل سياسي. يعمل هذا على

1- محمد عوض التربوي، النظريات الحديثة في علم الاجتماع التربوي (التفاعلية الرمزية، والنظرية المعرفية)، مداد، 27 شوال 1428هـ، <http://bitly.ws/yrMi1428> (08-11-2007).

2- علي عبد الرزاق جليبي، (1993)، الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 238.

3- محرر مجلة القافلة، التفاعل الرمزي الاجتماعي. نظرية فلسفية مهيمنة لكن ناقصة، القافلة 25 مارس، 2019.

<http://bitly.ws/yBhi>

4- إيان كريب، (1999)، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، ع (244)، الكويت، ص 135.

تَوْضِيح مَدَى تَعْرِيفِ الظَّوَاهِرِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالأَشْخَاصِ أَوْ الأَشْيَاءِ الَّتِي يَتَفَاعَلُونَ مَعَهَا، أَوْ كَمَا يَقُولُ سَنُو Snow، "السِّيَاقَاتُ التَّفَاعَلِيَّةُ أَوْ سَبَكَاتُ العِلَاقَاتِ الَّتِي تَكُونُ مُتَوَرِّطَةً فِيهَا وَمُدْمَجَةً فِيهَا"⁽¹⁾.

وهذا يعني أنّ استجابة الفرد لحالة معينة تعود، إلى حدّ كبير، إلى تعريفه لها، إذ يمكن أن يُنظر إلى الرّجل الذي يقدّم الأيس كريم لطفلة على أنّها لفتة لطيفة من قبل شخص، وكخدعة خطيرة من قبل شخص آخر، يمكن أن يُنظر إليه بشكل مختلف تماماً من قبل أشخاص مختلفين، إلى حدّ كبير نتيجةً لتجاربيهم وبيئاتهم.

وفي مثالٍ آخر، غالباً ما يُنظرُ إلى خاتَمِ الخُطوبَةِ كَعَلَامَةٍ عَلَى الحُبِّ وَالإلتِزَامِ وَإِشَارَةٍ إِلَى الزَّوْجِ الوَشِيكِ. فِي حِينِ أَنَّ امْرَأَةً أُخْرَى فِي مَوْقِفٍ مُمَاطِلٍ قَدْ تَرَى أَنَّ خَاتَمَ الخُطوبَةِ المَاسِيّ بِاهْطِ الثَّمَنِ قَدْ يَكُونُ إِغْوَاءً مِنْ قَبْلِ الرّجُلِ لِلْمَرَأَةِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ يَمْتَلِكُ رُؤْيَةً سِيَاقِيَّةً لِلأَحْدَاثِ تَنْسَجِمُ مَعَ تَطَلُّعَاتِهِ وَتَصَوُّرَاتِهِ الخَاصَّةِ. وَفِي كُلِّ الأَحْوَالِ، فَإِنَّ خَاتَمَ الخُطوبَةِ يُشَكِّلُ خُطْوَةً نَحْوَ الزَّوْجِ وَبِنَاءِ أُسْرَةٍ تُشَكِّلُ جُزْءاً مِنْ نَسِيحِ البِنَاءِ الإجتِمَاعِيِّ. وَيُشَكِّلُ تَوَقُّعَ الفَتَاةِ أَنَّهَا سَتَتَلَقَّى يَوْمًا مِثْلَ هَذَا الخَاتَمِ، وَتَرْتَدِيهِ عُنْصُرًا أُسَاسِيًّا فِي عَمَلِيَّةِ التَّفَاعَلِ الرَّمْزِيِّ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الأَفْكَارَ وَالرُّمُوزَ وَطَرَقَ السُّلُوكِ الجَدِيدَةِ يَتِمُّ تَطْوِيرُهَا بِاسْتِمْرَارٍ، إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ مِنْ خِلَالِ عَمَلِيَّاتِ التَّفَاعَلَاتِ الرَّمْزِيَّةِ بَيْنَ الأَفْرَادِ⁽²⁾.

7- الفاعلية الإنسانية (human effectiveness): يُعَدُّ مَفْهُومُ الفَاعِلِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ أُسَاسِيًّا فِي تَحْقِيقِ التَّفَاعَلِ الرَّمْزِيِّ، لِأَنَّ المَفْهُومَ يَرْمُزُ جَوْهَرِيًّا إِلَى القُوَّةِ الإجتِمَاعِيَّةِ، وَيَعْنِي أَنَّ الأَفْرَادَ يَمْتَلِكُونَ الإِرَادَةَ الحُرَّةَ وَالقُدْرَةَ عَلَى إِتْخَاذِ قَرَارَاتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ دُونَ تَأْثِيرِ اللُّقُوى الخَارِجِيَّةِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ عَلَى نَحْوِ نَسْبِيِّ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ التَّفَاعَلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ تُعْطِي الإِهْتِمَامَ لَوُجْهَاتِ النِّظَرِ الشَّخْصِيَّةِ لِلأَفْرَادِ المُتَفَاعِلِينَ، وَتَأْخُذُ بِعَيْنِ الإِعْتِبَارِ الكَيْفِيَّاتِ الَّتِي يَفْهَمُونَ بِهَا العَالَمَ، وَيُدْرِكُونَ مُخْتَلِفَ تَجَلِّيَاتِهِ مِنْ مَنظُورِهِمُ الخَاصِّ⁽³⁾. وَمُؤَدَى ذَلِكَ أَنَّ النَاسَ - وَفَقاً لِلتَّفَاعَلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ - يَسْتَجِيبُونَ لِعَنَاصِرِ بِنَائِهِمْ وَفَقاً لِلْمَعَانِي الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يُعَلِّقُونَهَا عَلَى تِلْكَ العَنَاصِرِ، مِثْلَ المَعَانِي الَّتِي يَتِمُّ إِنْشَاؤها وَتَعْدِيلُهَا مِنْ خِلَالِ التَّفَاعَلِ الإجتِمَاعِيِّ الَّذِي يَتَضَمَّنُ التَّوَاصُلَ الرَّمْزِيِّ مَعَ الأَخْرَيْنِ. وَلِهَذَا نَجِدُ أَنَّ التَّفَاعَلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ تَعْتَمِدُ فِي تَحْلِيلِهَا لِلْمُجْتَمَعِ عَلَى المَعَانِي الدَّائِيَّةِ الَّتِي يَسْبِغُهَا النَاسُ عَلَى الأَشْيَاءِ وَالأَحْدَاثِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ، وَتَخْصُ هَذِهِ المَعَانِي الدَّائِيَّةَ أَوْلِيَّةً وَأَهْمِيَّةً كَبِيرَةً؛ لِأَنَّهُ يَجْرِي الإِعْتِقَادَ بِأَنَّ النَاسَ يَتَصَرَّفُونَ بِنَاءً عَلَى مَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلَيْسَ فَقَطُ عَلَى مَا هُوَ حَقِيقِيٌّ مُوَضُوعِيٌّ.

8- الترميز (coding): الإِنْسَانُ مُحَاطٌ بِعَاقِبَةٍ مِنَ الرُّمُوزِ، كَمَا يَقُولُ فيكْتور تيرنر (Victor Turner)، وَهُوَ مَنْ يَصْنَعُ الرُّمُوزَ، إِذْ يُضْفِي عَلَى العَالَمِ صِيعَةً الرَّمْزِيَّةَ، فَالإِنْسَانُ يُحَوِّلُ العَالَمَ إِلَى رُمُوزٍ، وَيَحْمِلُ هَذِهِ الرُّمُوزَ مَعَانِيَهَا، لِيُصْبِحَ هَذَا العَالَمُ مَفْهُومًا وَمُدْرِكًا. وَيَعْرِفُ سَنُو (David Snow) التَّرْمِيزَ بِأَنَّهُ "العَمَلِيَّةُ الَّتِي

1- Snow, David A. 2001. "Extending and Broadening Blumer's Conceptualization of Symbolic Interactionism." Symbolic Interaction 24(3):367-77.

2- Snow, David A. 2001. "Extending and Broadening Blumer's Conceptualization of Symbolic Interactionism." Symbolic Interaction 24(3):367-77.

3- Carter, M. J., & Fuller, C. (2015). Symbolic interactionism. Sociopedia. isa, 1(1), 1-17.

تُعْتَمَدُ لِتَصْنِيفِ الْأَشْيَاءِ فِي عِلَامَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، وَهَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يُحِيطُ بِالْإِنْسَانِ وَاللُّغَةِ وَالْحَيَاةِ بِمَا فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ وَظُرُوفٍ، وَتُحَفِّصُ وَصِنَاعَاتٍ، وَأَشْخَاصٍ وَتَجْمُعاتٍ، وَغَيْرِهَا مِنْ سِمَاتِ الْبِيئَةِ الْمُحِيطَةِ مَعَانِي مُعَيَّنَةٍ، وَتُصَبِّحُ أَهْدَافاً لِلتَّوَجُّهِ تُثِيرُ مَشَاعِرَ وَأَفْعَالاً مُحَدَّدَةً⁽¹⁾، وَهِيَ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي يَتِمُّ مِنْ خِلَالِهَا رُؤْيَةُ الْأَشْيَاءِ كَرُمُوزٍ. تُعَدُّ الرُّمُوزُ، وَالطَّرِيقُ الَّتِي يَسْتُخْدِمُهَا الْأَفْرَادُ مِنْ خِلَالِهَا وَيَبْنُونَهَا، أَحَدَ الْمَفَاهِيمِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلتَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ. وَيَرَى خُبْرَاءُ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ بَأَنَّ الْأَفْرَادَ لَا يَسْتُخْدِمُونَ الرُّمُوزَ فَقَطْ لِمْسَاعَدَتِهِمْ عَلَى التَّوَاصُلِ وَالتَّفَاعُلِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ أَيْضاً مِنْ خِلَالِ فِعْلِ اسْتِخْدَامِهَا، فَهْمٌ يُسَاعِدُونَ عَلَى بِنَاءِ تِلْكَ الرُّمُوزِ.

6- مَفْهُومُ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ:

يُشَكِّلُ مَفْهُومَ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ أَحَدَ الْمَفَاهِيمِ السُّوسِيُولُوجِيَّةِ الْمُرْكَزِيَّةِ الَّتِي تَجَدَّرَتْ عَمِيقاً فِي تَارِيخِ الْفِكْرِ السُّوسِيُولُوجِيِّ الْكَلَّاسِيكِيِّ، وَلَا سِيَّما فِي سُّوسِيُولُوجِيَا مَآكْس فِيبِر (1864-1920) وَفِي أَعْمَالِ الْفِيلْسُوفِ الْأَمْرِيكِيِّ جُورْجِ هِرْبِرْتِ مِيد (1863-1931)، وَشَهِدَ هَذَا الْمَفْهُومُ تَطَوُّرَهُ الْلاَّحِقَ فِي عِلَى يَدِ هِرْبِرْتِ بُلُومِر، الَّذِي قَامَ بِصِيَاغَتِهِ وَتَأْصِيلِهِ مَنْهَجِيّاً وَفِكْرِيّاً⁽²⁾.

يُعرفُ التَّفَاعُلَ الْاجْتِمَاعِيَّ بِأَنَّهُ نَسَقٌ مِنْ: "الْعَمَلِيَّاتِ الْإِدْرَاكِيَّةِ الْوُجْدَانِيَّةِ وَالزُّوعِيَّةِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ اجْتِمَاعِيَّيْنِ (فَرْدَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، جَمَاعَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ، أَوْ فَرْدٍ وَجَمَاعَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ) فِي مَوْقِفٍ أَوْ وَسْطٍ اجْتِمَاعِيٍّ مُعَيَّنٍ، بِحَيْثُ يَكُونُ سُلُوكُ أَيِّ مِنْهُمَا مِنْهَا مُثْبِتاً لِسُلُوكِ الطَّرْفِ الْآخَرَ عَبْرَ وَسْطٍ (لُغَةٍ، أَعْمَالٍ، أَشْيَاءٍ) وَفِيهِ يَتِمُّ تَبَادُلُ رَسَائِلٍ مُعَيَّنَةٍ تَرْتَبِطُ بِغَايَةٍ أَوْ هَدَفٍ مُعَيَّنٍ"⁽³⁾.

وَالتَّفَاعُلَ الرَّمْزِيِّ، كَمَا يَتَّضِحُ مِنْ دَلَالَتِهِ الْلُغَوِيَّةِ، يُشَكِّلُ حَصَادَ اجْتِمَاعٍ مَفْهُومَيْنِ مُتَّفَاعِلَيْنِ، هُمَا: الرَّمْزُ وَالتَّفَاعُلُ، وَيَنْجُمُ عَنْ هَذَا التَّرَاوُجِ الصَّمِيمِيِّ بَيْنَ الْمَفْهُومَيْنِ عَدَدٌ مِنَ الْقَضَايَا الْأَسَاسِيَّةِ فِي نَظَرِيَّةِ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ. فَالتَّفَاعُلُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا فِي سِيَاقٍ رَمْزِيٍّ، وَكَذَلِكَ الرَّمْزِيَّةُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَوْجَدَ إِلَّا فِي سِيَاقٍ تَفَاعُلِيٍّ، فَالتَّوَاصُلُ يُؤَدِّي إِلَى التَّفَاعُلِ، وَالتَّفَاعُلُ يَقْتَضِي وُجُودَ أَنْسَاقٍ رَمْزِيَّةٍ، وَالْأَنْسَاقُ الرَّمْزِيَّةُ تَرْتَبِطُ جَوْهَرِيّاً بِالْمَعَانِي وَالذَّلَالَاتِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ فِي مَسَارَاتٍ تَأْوِيلِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ فِي التَّغْيِيرِ وَالتَّبَدُّلِ. وَمِنْ أَجْلِ تَوْضِيحِ عَمَلِيَّةِ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ يُمَكِّنُنَا الْإِسْتِنَارَةُ بِتَفْسِيرِ أَرْنُولْدِ رُوسِ وَشُرُوحَاتِهِ لِلتَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ عِنْدَ جُورْجِ هِرْبِرْتِ مِيد، فِي خَمْسِ فَرَضِيَّاتٍ أَسَاسِيَّةٍ⁽⁴⁾:

1- Snow, David A. 2001. "Extending and Broadening Blumer's Conceptualization of Symbolic Interactionism." Symbolic Interaction 24 (3):367-77.

2- Blumer, Herbert. 1969. Symbolic Interactionism: Perspective and Method. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

3- تعريف اقتبسه كل من: كشرود، فاطمة الزهراء وبو عمارة العربي، نظرية التفاعلية الرمزية ونظرية الحتمية القيمة، مرجع سابق. ص 156.

4- جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، الألوكة، الطبعة الأولى، 2015. ص 96، 95.

1- نحن نعيش في محيط رمزي ومادي في آن واحد، ونحن الذين نضع رموز العالم ومعانيه، وكذلك معاني أفعالنا في هذا العالم. وهذا يعني أننا نجرد العالم تجريداً رمزياً، ثم نضفي الدلالات والمعاني على هذه الرموز.

2- بفضل هذه الرموز ذات المعاني، التي يميزها مبدع عن العلامات الطبيعية، يكون بمقدورنا أن نحلّ محلّ الآخر؛ لأننا نشارك الآخرين الرموز نفسها.

3- نحن نتقاسم ثقافة مشتركة مؤلفة من أنساق من الرموز والمعاني والدلالات. وهذه الأنساق الرمزية المعنوية توجه معظم أفعالنا، وتتيح لنا على نحو واسع أن نتنبأ بتصرف الأفراد الآخرين.

4- تترابط الرموز المعاني والقيم المرتبطة، وتتفاعل فيما بينها لتشكّل نسجاً ثقافياً يمكن الفرد من أداء أدواره الاجتماعية بمرونة وفاعلية، ويجعله قادراً على بناء هويته الاجتماعية وإدراك ذاته في دائرة تفاعله مع الآخرين.

5- "إنّ الفكر هو السيرورة التي من خلالها تُدرس في بادئ الأمر الحول الممكنة والمحتملة من زاوية الفوائد والأضرار التي يجنّبها الفرد بالنسبة لقيمة [ما] قبل أن يختار هذه الحول في نهاية المطاف. إنّه نوع من الاستعاضة عن التصرف بوساطة تجارب وأخطاء. إنّ الفعل - إذاً - هو تفاعل مستمر بين أنا والأنا وسلسلة من المراحل التي تتبلور في نهاية المطاف في تصرف وحيد"⁽¹⁾.

يرى معظم التفاعليين الرمزيين أنّ الواقع المادي موجود بالفعل قبل وجود الأفراد، وأنّ تفاعل الأفراد مع هذا الواقع لا يتم بطريقة مباشرة، بل من خلال فهمهم لهذا الواقع، أي من خلال المعاني التي يضيفونها على مكوناته. هذا يعني أنّ البشر لا يوجدون في الفضاء المادي المكوّن من حقائق، ولكن في "العالم المكوّن من الرموز والأفكار والدلالات والمعاني التي يُنشئونها ويضيفونها على مُعطياته الحقيقية. تنطوي التفاعلية الرمزية على عدد من المفولات والفرضيات الأساسية التي تُحدّد طبيعة هذه النظرية وجوهرها.

ومن أهمّ الفرضيات التي طرحت يمكن الإشارة إلى القضايا التالية:

1- تربط التفاعلية الرمزية بين الحياة الداخلية أو النفسية للفرد، وبين طبيعته المجتمعية الذي يعيش فيه وما يحتويه من لغة ورموز وحضارة⁽²⁾، أي بين الحياة الداخلية للفرد بوصفه ذاتاً وبين المجتمع وما ينطوي عليه من نظام قيمي وأحكام قيمية وأخلاقية يمكن إصدارها على الفرد الذي يكون مصدر عمليّة التفاعل مع الآخرين⁽³⁾.

1- آلان كولون، مدرسة شيكاغو، ترجمة: مروان بطش، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2012، ص 23، 24.

2- Cooley, C.H. Human Nature and the Social Order, New York, Schocken, 1984, P.74.

3- Coser, Lewis A. Masters of Sociological Thought New York, Harcourt, Brace, 1977, P.333.

2- تُرَكِّزُ التَّفَاعِلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ عَلَى أَهْمِيَّةِ اللُّغَةِ فِي التَّفَاعِلِ الرَّمْزِيِّ، كَمَا تُؤَكِّدُ عَلَى دَوْرِ المَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ الَّتِي تَأْخُذُ صِبْغَةً لُغَوِيَّةً فِي عَمَلِيَّةِ التَّفَاعِلِ (1). وَيَتَمَيَّزُ التَّفَاعِلُ الرَّمْزِيُّ بِأَنَّهُ تَفَاعُلٌ مُسْتَمَرٌّ وَمُتَغَيِّرٌ، فَهُوَ مُسْتَمَرٌّ بِاعْتِبَارِهِ أَحَدَ العَنَاصِرِ الثَّابِتَةِ فِي المُجْتَمَعِ، وَلَكِنَّ مَضْمُونَهُ وَالأَفْرَادَ القَائِمِينَ بِهِ مُتَغَيِّرُونَ. وَلِذَا يَجِبُ أَنْ يَعْكَسَ البَحْثُ هَذَيْنِ الجَانِبَيْنِ مِنَ التَّفَاعِلِ. وَيَرَى التَّفَاعِلِيُّونَ "أَنَّ اللُّغَةَ تُمارِسُ دَوْرَهَا فِي تَطْوِيرِ المُجْتَمَعِ، أَوْ فِي المَحَافِظَةِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ فِي صِيَاغَةِ الأَنْشِطَةِ الذِّهْنِيَّةِ لِالأَفْرَادِ، وَهَذَا بِمِثَابَةِ مَدْخَلِ اجْتِمَاعِي نَفْسِي يُؤَكِّدُ العِلَاقَةَ بَيْنَ الأَنْشِطَةِ الذِّهْنِيَّةِ لِلْفَرْدِ وَعَمَلِيَّةِ الإِتِّصَالِ الإِجْتِمَاعِي؛ وَلِهَذَا يُشِيرُ أَصْحَابُ المَنْظُورِ المَذْكُورِ إِلَى أَنَّ النَاسَ يُشَكِّلُونَ أَوْ يُقَدِّمُونَ بِشَكْلِ جَمَاعِي آراءَهُمْ عَنِ البِيئَةِ الَّتِي يَنْصَارِعُونَ مَعَهَا" (2).

3- يَتَفَاعَلُ النَاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَساسِ المَعَانِي الَّتِي يُضْفُونَهَا عَلَى الأَشْيَاءِ وَالرُّمُوزِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى يُمَكِّنُ القَوْلُ: إِنَّ البَشَرَ يَتَصَرَّفُونَ إِزاءَ الأَشْيَاءِ عَلَى أَساسِ المَعَانِي الَّتِي يَنْسُبُونَهَا إِلَى تِلْكَ الأَشْيَاءِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَصَرَّفُ إِزاءَ كُلِّ مَا يُلَاحِظُهُ فِي عَالَمِهِ -بِمَا فِي ذَلِكَ الأَشْيَاءِ المَادِّيَّةِ وَالأَفْعَالِ وَالمَفَاهِيمِ - عَلَى أَساسِ فَهْمِهِ لَهَا وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مَعَانٍ وَدَلَالَاتٍ أُسْبَغَهَا بِنَفْسِهِ عَلَيْهَا. وَالتَّأَكِيدُ عَلَى الجَانِبِ المَعْنَوِيِّ يَتَجَلَّى فِي رُؤْيَةِ بِلومر، إِذْ يَضَعُ ثَلَاثَةَ مُفْتَرِحَاتٍ أَساسِيَّةً، هِيَ:

أَوَّلًا: لُزُومُ تَصَرُّفِ النَاسِ تُجَاهَ الأَشْيَاءِ، بِمَا فِي ذَلِكَ بَعْضُهُمُ البَعْضِ، عَلَى أَساسِ المَعَانِي الَّتِي لَدَيْهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ.

ثَانِيًا: لُزُومُ إِشْتِقاقِ المَعَانِي مِنَ التَّفَاعِلِ الإِجْتِمَاعِيِّ مَعَ الأَخْرَيْنِ وَالأَشْيَاءِ.

ثَالِثًا: تَفْسِيرُ هَذِهِ المَعَانِي وَإِدَارَتُهَا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تُمَكِّنُ النَاسَ مِنْ فَهْمِ الأَشْيَاءِ الَّتِي تُشَكِّلُ عَوالمَهُمُ الإِجْتِمَاعِيَّةَ وَالتَّعَامُلَ مَعَهَا. "فَالتَّفَاعِلُ الإِجْتِمَاعِيُّ يُؤَلِّدُ المَعَانِي وَالمَعَانِي تُشَكِّلُ مَعَانِي أُخْرَى. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّنَا نَخْلُقُ عَالَمًا نَخْلَعُ عَلَيْهِ المَعَانِي: فَقِطْعَةُ الخَشَبِ هِيَ قِطْعَةُ الخَشَبِ، غَيْرَ أَنَّهَا فِي حَيَاتِنَا اليَوْمِيَّةِ تُصْبِحُ مِنْضَدَةً. وَكَلِمَةُ مِنْضَدَةٍ تَعْنِي الدَّوْرَ الَّذِي تُمارِسُهُ قِطْعَةُ الخَشَبِ تِلْكَ فِي عَمَلِيَّةِ تَفَاعُلِنَا: أَي ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي نَأْكُلُ عَلَيْهِ، أَوْ تِلْكَ الَّتِي نَعْمَلُ عَلَيْهَا، أَوْ الَّتِي نَحْمِي بِهَا أَنْفُسَنَا ضِدَّ هَجَمَاتِ الشَّرْطَةِ، وَهَكَذَا. وَكَمَا أَنَّ تِلْكَ المَعَانِي تَتَغَيَّرُ وَتَتَطَوَّرُ، فَإِنَّ العَالَمَ يَتَغَيَّرُ أَيضًا مَعَهَا وَيَتَطَوَّرُ" (3).

4- يَرَى التَّفَاعِلِيُّونَ أَنَّ مَعَانِي الأَشْيَاءِ تُؤَلِّدُ فِي مُعْتَرِكِ التَّفَاعِلِ الرَّمْزِيِّ الإِجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَحْكُمُ عِلَاقَتَهُ بِالأَخْرَيْنِ وَالأَشْيَاءِ. وَيُضِيءُ بِلومر (Blumer) عَلَى هَذَا التَّصَوُّرِ بِأَنَّ النَاسَ يَتَفَاعَلُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا خِلالَ تَفْسِيرِ أَوْ تَعْرِيفِ تَصَرُّفَاتِ بَعْضِهِمُ البَعْضِ عَوَضًا عَنِ مُجَرَّدِ الرَّدِّ عَلَيْهَا. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الرَّدَّ التَّفَاعِلِيَّ يَعْتَمِدُ عَلَى المَعْنَى الَّذِي يُعَلِّقُهُ الأَفْرَادُ عَلَى سُلُوكَاتِ الأَخْرَيْنِ، وَعَلَى هَذَا المُنْوَاعِ يَتِمُّ التَّفَاعِلُ البَشَرِيُّ بِوِاسِطَةِ إِسْتِخْدَامِ الرُّمُوزِ وَالدَّلَالَاتِ، أَوْ عَنِ طَرِيقِ التَّفْسِيرِ المَعْنَوِيِّ وَالتَّحَقُّقِ مِنْ مَعْنَى الأَفْعَالِ المُتَبَادِلَةِ بَيْنَ الأَفْرَادِ.

1- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة: دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة الطبعة الثالثة، بغداد: دار وائل للنشر، 2015. ص 86.

2- مريم زعتر، الإعلان في التلفزيون الجزائري -تحليل مضمون إعلانات القناة الوطنية - مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، السنة الجامعية 2008/2007. ص 35.

3- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، من بارسونز إلى هابرماس، مرجع سابق، ص 119.

5- يُرَكِّزُونَ عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّفَكِيرِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّفَاعُلِ، فَالتَّفَكِيرُ هُوَ أَدَاةُ بِنَاءِ المَعَانِي وَتَشْكِيلِ الدَّلَالَاتِ. وَيَرَوْنَ أَنَّ التَّفَكِيرَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَةٍ مُحَادَثَةٍ دَاخِلِيَّةٍ تَجْرِي فِي وَجْدَانِ الفَرْدِ وَفِي عَقْلِهِ. وَقَدْ أَوَّلَى مِيدَ التَّفَكِيرِ أَهْمِيَّةً كُبْرَى، إِذْ يُحَدِّثُنَا عَنِ الحِوَارِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي يُؤَدِّي غَالِباً إِلَى التَّأخِيرِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّفَكِيرِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يُفَكِّرُ الأَفْرَادُ فِيمَا سَبَفَعُلُونَهُ فِي مَعْرَضِ تَفَاعُلِهِمْ مَعَ الأَخْرَيْنِ. وَفِي عُمُقِ هَذَا الحِوَارِ الدَّاخِلِيِّ تَتِمُّ عَمَلِيَّةُ بِنَاءِ المَعَانِي؛ وَمِنْ ثَمَّ تُعَدِّلُهَا وَفَقاً لِعَمَلِيَّةِ تَفْسِيرِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ يَسْتُخْدِمُهَا الأَفْرَادُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الأَشْيَاءِ، وَفِي التَّفَاعُلِ مَعَ الأَخْرَيْنِ.

6- وَيُوكِّدُونَ فِي هَذَا السِّيَاقِ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ كَائِنٌ مُفَكِّرٌ، وَيُؤَسِّسُونَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَفْتَصِرُ فِي تَفَاعُلِهِ عَلَى الأَخْر، بَلْ يَتَعَدَّى هَذَا الأَمْرُ إِلَى تَفَاعُلٍ يَتِمُّ فِي دَاخِلِ الفَرْدِ وَفِي أَعْمَاقِهِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّنا لَسْنَا مُجَرَّدَ كَائِنَاتٍ مُتَأَثِّرَةٍ بِمَنْ حَوْلَنَا، وَلَسْنَا مُجَرَّدَ نَتَاجِاتِ المُجْتَمَعِ. نَحْنُ، فِي جَوْهَرِنَا، حَيَوَانَاتٌ مُفَكِّرَةٌ، نَتَحَدَّثُ دَائِماً مَعَ أَنفُسِنَا أَثناءَ تَفَاعُلِنَا مَعَ الأَخْرَيْنِ.

7- وَيَنْظُرُونَ إِلَى أَهْمِيَّةِ النِّشَاطِ الإِجْتِمَاعِيِّ لِالأَفْرَادِ بِوصْفِهِمْ كَائِنَاتٍ نَشِطَةٌ يُمارِسُونَ الفِعْلَ وَالتَّأثيرَ فِي بَيْنَتِهِمْ، مِثْلَ: التَّكْيِيفِ وَالتَّكْيِيفِ وَالإِسْتِجَابَةِ وَالتَّحَكُّمِ وَالتَّشْكِيلِ وَالبِنَاءِ وَالفَهْمِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ تُرَكِّزُ عَلَى وُجُودِ الفَرْدِ الفَاعِلِ النَّشِطِ فِي بَيْنَتِهِ وَالقَادِرِ عَلَى المُشَارَكَةِ فِي بِنَاءِ الحَيَاةِ وَالمُجْتَمَعِ عِبْرَ سِلْسِلَةٍ لِامْتِنَاهِيَّةٍ مِنْ أَشْكَالِ الفِعْلِ وَالتَّفَاعُلِ فِي البِيئَةِ وَمَعَ الأَخْرَيْنِ.

8- تُلِحُّ التَّفَاعُلِيَّةُ عَلَى الطَّابَعِ الإِجْتِمَاعِيِّ لِلْفَرْدِ، وَتَرَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الفَرْدِ أَنْ يُدْرِكَ نَفْسَهُ بِوصْفِهِ كَائِناً إِجْتِمَاعِيّاً يُشَارِكُ الجَمَاعَةَ فِي أَفْكَارِهِ وَمَتَطَلِّبَاتِ وُجُودِهِ. وَهُوَ الأَمْرُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى انْخِرَاطِ الفَرْدِ المُسْتَمِرِّ فِي عَمَلِيَّةِ التَّفَاعُلِ الإِجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى قِيَامِ المُجْتَمَعِ وَإِنْتِطَاقِ الحَيَاةِ فِيهِ. وَفِي هَذَا المَقَامِ تُرَكِّزُ التَّفَاعُلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ عَلَى الأَنْشِطَةِ الَّتِي تَحْدُثُ بَيْنَ الجِهَاتِ الفَاعِلَةِ. وَتَأْخُذُ بِعَيْنِ الإِعْتِبَارِ أَنَّ التَّفَاعُلَ الرَّمْزِيَّ يُشَكِّلُ جَوْهَرَ الحَيَاةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ. فَالأَفْرَادُ يَتَشَكَّلُونَ وَتَتَشَكَّلُ هُويَاتُهُمْ فِي مُعْتَرَكِ التَّفَاعُلِ، وَهُوَ أَيْضاً الأَدَاةُ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى تَشْكِيلِ الظُّوَاهِرِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَهَذَا يَعْنِي، وَفَقاً لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ، أَنَّ أَسْرَارَ المُجْتَمَعِ كَامِنَةٌ فِي تَفَاعُلَاتِهِ المُسْتَمِرَّةِ القَائِمَةِ فِي مُسْتَوَى الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ.

9- وَأَخيراً يَنْظُرُونَ أَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ إِلَى المُجْتَمَعِ بِوصْفِهِ نِظَاماً مِنَ الأَفْرَادِ وَالدَّلَالَاتِ وَالرُّمُوزِ وَالمَعَانِي وَالإِشَارَاتِ وَالإِيمَاءَاتِ الَّتِي تُشَكِّلُ مَجْمُوعَ تَفَاعُلَاتِهَا بِنِيَّةِ المُجْتَمَعِ وَنَسِيجِهِ الحَيَوِيِّ. وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ، فَإِنَّ الحَقَائِقَ الإِجْتِمَاعِيَّةَ وَالمَادِّيَّةَ تُشَكِّلُ نَسَقاً مُنظَّماً مُتكاملاً مِنَ المَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ الَّتِي تَأْتِي كَنَتِيجَةٍ طَبِيعِيَّةٍ لِلْمُمارَسَةِ الرَّمْزِيَّةِ لِالأَفْرَادِ، أَيْ أَنَّهُ نَتَاجُ فَعَالِيَّةِ الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ فِي مَسَاقَاتِ تَفَاعُلِهِمُ الرَّمْزِيِّ. وَيُنْبَنِي عَلَى ذَلِكَ أَنَّ تَفْسِيرَ الحَقَائِقِ وَالأَشْيَاءِ، وَمِنْ ثَمَّ تَرْكِيظُهَا بِالمَعَانِي وَصُولاً إِلَى فَهْمِهَا وَاكتِنَاهِ مَعْنَاهَا، يَتِمُّ وَفَقَ تَوَافُقِ جَمَاعِيٍّ يَقَعُ بَيْنَ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ. وَهِيَ تُشَكِّلُ فِي الوَقْتِ ذَاتَهُ العِلَاقَاتِ وَالرَّوَابِطَ الحَيَوِيَّةَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى وَحْدَةِ الأَفْرَادِ وَتَكَامُلِ أَفْكَارِهِمْ وَذَوَاتِهِمْ. وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ تَتَشَكَّلُ مُعْتَقَدَاتُ الأَفْرَادِ الذَّائِيَّةُ، وَتَتَكَوَّنُ ذَوَاتُهُمُ الإِجْتِمَاعِيَّةُ فِي حِصْمِ التَّفَاعُلِ الإِجْتِمَاعِيِّ الرَّمْزِيِّ.

7- المنهج في التفاعلية الرمزية:

وَقَعَتِ الإِشَارَةُ سَابِقاً إِلَى أَنَّ التَّفَاعِلِيِّينَ يَرْفُضُونَ المُنَاجِجَ الوَضْعِيَّةَ الكَمِّيَّةَ، وَجُفَافُونَ المُنَهْجِيَّاتِ العِلْمِيَّةَ الَّتِي تَعْتَمِدُهَا البِنَائِيَّةُ وَالوُظُفِيَّةُ، وَيَأْخُذُونَ فِي أَعْمَالِهِم بِالمُنَاجِجِ السِيكولوجِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِيَّةِ، وَلَا سِيَّمًا فِي مَدْرَسَةِ شِيكَاغُو. وَمِنَ السِّمَاتِ المُمَيَّزَةِ لِتَيَّارِ التَّفَاعِلِ الرَّمْزِيِّ إِعْتِمَادُهُم الكَبِيرَ لِلرَّصْدِ العَيَانِيِّ المَبَاشِرِ كَمُنَهْجِ عِلْمِيٍّ فِي تَقْصِي الحَقَائِقِ وَالبَيِّنَاتِ. وَتَبَيَّنَ أَعْمَالُهُم أَنَّهُمْ يَعْتمِدُونَ فِي مُعْظَمِ الأَحْيَانِ عَلَى تَسْجِيلِ المُلَاحَظَاتِ وَالمُشَاهَدَاتِ الحَيَّةِ وَإِجْرَاءِ المُقَابَلَاتِ مَعَ المَوْضُوعَاتِ، وَلَا يُسَجِّلُونَ كَلِمَاتِهِم بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَّةٍ فَحَسْبُ، بَلْ يُسَجِّلُونَ أَيْضاً أنواعاً أُخْرَى مِنَ الإِسْتِجَابَاتِ، مِثْلَ لُغَةِ الجَسَدِ وَنَبْرَةِ الصَّوْتِ. بِالمَعْنَى الأَوْسَعِ، يُمَكِّنُ وَصْفُ مَنَهْجِيَّةِ التَّفَاعِلِ الرَّمْزِيِّ بِأَنَّهَا أَكْثَرُ إِهْتِمَاماً بِالنَتَائِجِ العَمَلِيَّةِ مِنْهَا بِالنَظَرِيَّةِ.

وَمِنَ الوَاضِحِ أَنَّ مَنَهْجِيَّةَ التَّفَاعِلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةَ تَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ الفَرْدِ بِوَصْفِهِ القُوَّةَ الفَاعِلَةَ فِي الوَسْطِ الإِجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَيَعِيشُ فِيهِ. وَهَذَا يَعْني أَنَّ التَّفَاعِلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ تَبْحَثُ فِي تَجَارِبِ الأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةِ، وَتَسْعَى فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ إِلَى فَهْمِ الدَّلَالَاتِ الرَّمْزِيَّةِ لِأَفْعَالِهِم دَاخِلَ السِّيَاقِ الإِجْتِمَاعِيِّ، وَعَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ تَتَخَطَّى المُقَابَرَةَ التَّفَاعِلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ المُنَهْجِيَّةَ الدُورِكائِيَّةَ القَائِمَةَ عَلَى التَّفْسِيرِ العِلْمِيِّ وَالمَوْضِعِيِّ، وَتَرْجِيحِ كَفَّةِ المُجْتَمَعِ عَلَى كَفَّةِ الذَّاتِ أَوْ الفَاعِلِ.

وَيُؤَكِّدُ آلانُ كُولُونُ (Alain Goulon) هَذَا التَّوَجُّهَ التَّفَاعِلِيَّ فِي كِتَابِهِ (مَدْرَسَةُ شِيكَاغُو) بِقَوْلِهِ: "يَجِبُ أَنْ نَأْخُذَ بِالحُسْبَانِ أَنَّ التَّفَاعِلِ الرَّمْزِيَّ المُتَبَادِلَ، وَلِلْمَرَّةِ الأُولَى فِي تَارِيخِ عِلْمِ الإِجْتِمَاعِ، يَمْنَحُ دَوْرًا نَظَرِيًّا لِلفَاعِلِ الإِجْتِمَاعِيِّ كَمُمَثِّلٍ لِلعَالَمِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ"⁽¹⁾. وَمِنَ البِدَاهَةِ حَسَبَ كُولُونِ أَنَّ مَنَهْجِيَّاتِ البَحْثِ فِي التَّفَاعِلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ تُعْطِي أَوْلَوِيَّةً لِوَجْهَاتِ نَظَرِ الفَاعِلِينَ، وَأَنَّ الهَدَفَ مِنْ إِسْتِخْدَامِ هَذِهِ الطَّرَائِقِ هُوَ تَوْضِيحُ المَعَانِي الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الفَاعِلُونَ أَنفُسَهُمْ لِبِنَاءِ عَالَمِهِم الإِجْتِمَاعِيِّ"⁽²⁾. وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ "يَنْبَغِي لِكُلِّ بَحْثٍ فِي العُلُومِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ الجِرْصُ عَلَى عَدَمِ تَشْوِيهِ العَالَمِ الإِجْتِمَاعِيِّ، أَوْ إِخْفَاءِ الفَاعِلِيَّاتِ المُتَبَادِلَةِ الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَیْهَا كُلُّ حَيَاةٍ إِجْتِمَاعِيَّةٍ؛ لِأَنَّ الأَفْرَادَ بِبَسَاطَةٍ هُمُ المَعْنِيُّونَ بِبِنَاءِ عَالَمِهِم الإِجْتِمَاعِيِّ مِنْ خِلَالِ المَعَانِي الَّتِي يُضْفُوْنَهَا عَلَى الأَشْيَاءِ وَالأَفْرَادِ وَالرُّمُوزِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ"⁽³⁾.

وَيَعْتمِدُ التَّفَاعِلِيُّونَ الرَّمْزِيُّونَ مَنَهْجِيَّاتِ البَحْثِ النُّوعِيِّ الَّتِي تَتَّخِذُ طَابِعاً نُّوعِيًّا فِي أَنْسَاقِ مِنَ المُقَابَلَاتِ وَالمُلَاحَظَاتِ وَتَحْلِيلِ النُّصُوصِ وَالسِّيَاقَاتِ وَالإِيْمَاءَاتِ وَالمُلَاحَظَةِ المُشَارِكِينَ، وَتَعْتَمِدُ مُخْتَلِفُ هَذِهِ الطَّرَائِقِ النُّوعِيَّةِ فِي دِرَاسَةِ التَّفَاعِلِ الإِجْتِمَاعِيِّ فِي مُخْتَلِفِ تَجَلِّيَاتِهِ وَتَعْيُنَاتِهِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ. وَهِيَ المُنَهْجِيَّاتُ الَّتِي تُمَكِّنُهُمْ مِنْ إِسْتِكْشَافِ الرُّمُوزِ وَالمَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ الكَامِنَةِ فِي مُعْتَرَكِ التَّفَاعِلِ الرَّمْزِيِّ بَيْنَ الأَفْرَادِ.

1- آلان كُولُونُ، مَدْرَسَةُ شِيكَاغُو، تَرْجَمَةُ: مروان بطش، مَجْدِ المَوْسَسَةِ الجَامِعِيَّةِ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، بِيْرُوتِ، لِبْنَانِ، الطَّبْعَةُ الأُولَى سَنَةِ 2012، ص 25.

2- آلان كُولُونُ، مَدْرَسَةُ شِيكَاغُو، المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 25.

3- المَرْجِعُ نَفْسُهُ، الصَّفْحَةُ نَفْسُهَا.

وَيُؤَكِّدُ التَّفَاعُلِيَّونَ، فِي هَذَا السِّيَاقِ، أَنَّ الإِتِّصَالَ الوَثِيقَ مَعَ الأَفْرَادِ وَالإِنْعِمَاسَ فِي أَنْشِطَتِهِمُ اليَوْمِيَّةِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِقَبُولِهِمُ مَعْنَى الأَفْعَالِ وَدَلَالَتِهَا، وَمِنْ ثَمَّ تُحَدِّدُ المَوَاقِفَ وَالعَمَلِيَّةَ الَّتِي يَبْنِي بِهَا الفَاعِلُونَ المَوْقِفَ مِنْ خِلَالِ تَفَاعُلِهِمْ. وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَوَفْقَ هَذِهِ المُنْهَجِيَّةِ التَّشَارِكِيَّةِ تُجْرَى الدِّرَاسَاتُ التَّفَاعُلِيَّةُ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَنَهِجِيَّةَ التَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ تُرَكِّزُ عَلَى التَّفَاعُلِ البَشَرِيِّ العَيَانِيِّ فِي مَوَاقِفَ تَفَاعُلِيَّةِ رَمْزِيَّةِ مُحَدَّدَةٍ فِي سِيَاقِ إِجْتِمَاعِيٍّ. وَغَالِباً مَا أُجْرِيَتِ البُحُوثُ التَّفَاعُلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ تَأْسِيساً عَلَى مَنَهِجِ المُلَاحَظَةِ بِالمُشَارَكَةِ، إِذْ يَتَطَلَّبُ الأَمْرُ مِنَ البَاحِثِ أَنْ يَعرِشَ فِي الوَسَطِ الإِجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَدْرُسُهُ مِثْلَ المَدَارِسِ وَالمُسْتَشْفِيَّاتِ وَالأَسْوَاقِ وَالمَقَاهِي وَالسُّجُونِ⁽¹⁾. وَهَذَا هُوَ المُنْهَجُ الَّذِي اعْتَمَدَهُ إِرْفِينِغُ غُوفْمَانُ فِي مُخْتَلِفِ أبحاثِهِ الدِّرَامِيَّةِ.

وَتَجَدُّرُ الإِشَارَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ إِلَى وِلَادَةِ إِتْجَاهٍ جَدِيدٍ دَاخِلَ التِّيَّارِ التَّفَاعُلِيِّ الرَّمْزِيِّ يَدْعُو إِلَى اسْتِخْدَامِ المَنَاهِجِ الكَمِّيَّةِ وَالإِحْصَائِيَّةِ، وَهَذَا مَا سَتَرَاهُ لِاحِقاً فِي دِرَاسَتِنَا لِمدْرَسَتِي أَيُّوا وَأَيْنْدِيَانَا، إِذْ نَجِدُ تَوَجُّهاً جَدِيداً لِتَوْظِيفِ المَنَاهِجِ الكَمِّيَّةِ وَالإِحْصَائِيَّةِ فِي مَجَالِ الأَبْحَاطِ التَّفَاعُلِيَّةِ. وَقَدْ ظَهَرَ جِيلٌ جَدِيدٌ مِنَ البَاحِثِينَ، بَعْدَ الأَرْتِيبِيعِيَّاتِ مِنَ القَرْنِ المَاضِي، إِهْتَمُّوا بِدِرَاسَةِ المُؤَسَّساتِ وَالأُوسَاطِ المِنبِئِيَّةِ وَالجَزْفِيَّةِ، وَقَدْ اسْتَخْدَمُوا مَنَاهِجَ كَمِّيَّةً وَكَيْفِيَّةً، تَارِيخِيَّةً وَبِيوغَرافِيَّةً، وَمَنَاهِجَ التَّحْقِيقِ وَالمُعَايشَةِ المُشْتَرَكَةِ المُسْتَعْمَلَةَ فِي الأَبْحَاطِ الأَنْتِربُولُوجِيَّةِ وَالإِنْتِربُولُوجِيَّةِ. وَقَدْ انْصَبَّ إِهْتِمَامُ هَذِهِ المَدْرَسَةِ عَلَى مَعَانِي الأَفْعَالِ لَدَى الأَفْرَادِ دَاخِلِ الوَضْعِيَّاتِ المُجْتَمَعِيَّةِ الَّتِي يَعرِشُونَهَا. وَمِنْ أَهَمِّ أَنْصَارِ هَذَا التَّوَجُّهِ الجَدِيدِ يُشارُ إِلَى إِرْفِينِغِ كُوفْمَانِ (. Erving Goffman)، وَهُوَارِدِ بِيكِرِ (Howard Becker)، وَأَنْسِلِيمِ شْتروس (Anselm Strauss)، وَفَرِيدسون (Freidson)، وَإِفْرِيْتِ هَاوْثِ (Everett Hughes)، وَجُورْجِ مِيدِ (George Mead).

8- مَدَارِسُ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ:

شَهِدَتِ التَّفَاعُلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ نَوْعاً مِنَ التَّطَوُّرِ المُسْتَمِرِّ مُنْذُ اللِّحْظَةِ الَّتِي نُشِرَ فِيهَا كِتَابُ جُورْجِ مِيدِ فِي عامِ 1937. وَاشْتَمَلَ هَذَا التَّطَوُّرُ عَلَى بَعْضِ التَّنَوُّعَاتِ النَّظَرِيَّةِ فِي دَاخِلِ هَذَا التِّيَّارِ، وَيُمَيِّزُ البَاحِثُونَ بَيْنَ عِدَّةِ مَدَارِسَ أَسَاسِيَّةٍ هِيَ: مَدْرَسَةُ شِيكاغُو (Chicago School) وَتُمَثِّلُهَا هِرْبِرْتُ بِلُومِرِ (Herbert Blumer) (1900-1986)، وَمَدْرَسَةُ أَيُّوا (Iowa School) وَتُمَثِّلُهَا مَانْفُورْدُ كُونِ (Manford Kuhn) (1911-1963)، وَمَدْرَسَةُ إِنْديَانَا (Indiana School) وَتُمَثِّلُهَا شِيلْدُونُ سْترايْكِرِ (Sheldon Stryker) (1924-2016) وَمَدْرَسَةُ التَّمْثِيلِ المُسْرَحِيِّ وَتُمَثِّلُهَا إِرْفِينِغُ كُوفْمَانِ (Erving Goffman) (1922-1982). وَسَنَقُومُ بِعَرَضِ المَلَامِحِ الأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ المَدَارِسِ، ثُمَّ نَعْمَلُ عَلَى تَقْدِيمِ رُؤْيَا تَفْصِيلِيَّةٍ لِأَفْكارِ رُؤَادِهَا مِثْلَ بِلُومِرِ وَمِيدِ وَكُوفْمَانِ وَكُونِ وَسْترايْكِرِ.

8-1- مَدْرَسَةُ شِيكاغُو بِلُومِرِ لِلتَّفَاعُلِ الرَّمْزِيِّ:

تَشَكَّلَتِ مَدْرَسَةُ شِيكاغُو لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ فِي أَحْضَانِ جَامِعَةِ شِيكاغُو فِي نِهَايَةِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَبِدَايَةِ القَرْنِ العِشْرِينَ، وَيُعَدُّ كُلُّ مَنْ هِرْبِرْتُ بِلُومِرِ (Herbert Blumer) وَبِيْلِيَامُ توماس (William I. Thomas) وَرُوبِرْتُ بَارْكَ (Robert E. Park) مِنْ أَبْرَزِ مُمَثِّلِي هَذِهِ المَدْرَسَةِ. وَيَعَدُّ بِلُومِرُ زَعِيمَ هَذِهِ المَدْرَسَةِ

1- إِيَانُ كَرِيبِ، النُّظْرِيَّةُ الإِجْتِمَاعِيَّةُ، مِنْ بَارْسُونزِ إِلَى هَابِرْمَاسِ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ. ص 118.

وَمُؤَسَّسَهَا، وَهُوَ كَمَا أَسْلَفْنَا أَوَّلَ مَنْ اسْتُخْدِمَ مَفْهُومَ "التَّفاعِلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ" وَأَصْلُهُ مِنْهَجِيًّا، وَقَدْ أَخَذَ بِلومر عَلَى عَاتِقِهِ تَطْوِيرَ رُؤْيِ أُسْتَاذِهِ جورج هِرْبِرْت مِيد وَتَصَوُّرَاتِهِ.

يُرَكِّزُ رُؤَاؤُ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ عَلَى أَهْمِيَّةِ الرَّمْزِ وَالتَّفاعِلِ الرَّمْزِيِّ فِي تَشْكِيلِ الْهُويَّةِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْإِنْسَانِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْبَحْثَ فِي السُّلُوكِ الْإِجْتِمَاعِيِّ يَجِبُ أَنْ يَنْطَلِقَ مِنَ الْبَحْثِ فِي الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي يَرْتَبِطُ بِهَا الْأَفْرَادُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ عَبْرَ عَمَلِيَّاتِ التَّوَاصُلِ وَالتَّفاعِلِ لِبِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ وَتَشْكِيلِ الظَّوَاهِرِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ (1). وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ ضِمْنَ، هَذَا السِّيَاقِ، أَنَّ تَشْكِيلَ الْمُجْتَمَعِ يَأْخُذُ عَمَلِيَّةً مُسْتَمِرَّةً مِنَ التَّفاعِلِ الرَّمْزِيِّ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَوُودِي هَذَا التَّفاعِلِ ضِمْنَ مَسَارَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةَ إِلَى تَوْلِيدِ الْمَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ الَّتِي تَبْلُورُ الْعِنَاصِرَ الْأَوَّلِيَّةَ لِلتَّشْكِيلِ الْإِجْتِمَاعِيِّ وَإِخْضَاعِ الْمُجْتَمَعِ لِعَمَلِيَّةِ التَّغْيِيرِ الدَّائِمِ. وَهُمْ، إِذْ يُرَكِّزُونَ عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّغْيِيرِ وَفَقَ دِينَامِيَّاتِ مَعْنَوِيَّةِ وَرَمْزِيَّةِ، يَرَوْنَ أَنَّ الرُّمُوزَ الْمُتَبَادَلَةَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي سِيَاقِ تَفَاعُلِيٍّ تَبَدَّلَ مَعَانِيهَا وَدَلَالَاتِهَا، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ وَتَتَغَايَرُ فِي سِيَاقِ التَّفاعِلِ الْقَائِمِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ، فَالتَّفاعِلُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ يُوَدِّي إِلَى تَغْيِيرِ فِي دَلَالَاتِ الرُّمُوزِ، وَقَدْ يَأْخُذُ الرَّمْزُ الْوَاحِدُ مَعَانِيَّ مُخْتَلِفَةً فِي سِيَاقِ التَّفاعِلِ حَتَّى فِي اللَّحْظَةِ الْوَاحِدَةِ نَفْسِهَا (2).

وَلِأَنَّ عَمَلِيَّةَ بِنَاءِ الْمَعَانِي تَتَشَكَّلُ فِي قَلْبِ التَّفاعِلِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ عَلَى نَحْوِ رَمْزِيٍّ، فَإِنَّ الْمَعْنَى الْوَاحِدَ قَدْ يَتَلَوَّنُ وَيَتَغَيَّرُ وَيَأْخُذُ دَلَالَاتٍ جَدِيدَةً أَيْضًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَرْدِ نَفْسِهِ فِي سِيَاقِ التَّفاعِلِ الرَّمْزِيِّ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ تَبْدُو الْحَيَاةُ فِي صُورَةٍ اِنْسِيَابِيَّةٍ مُتَدَقِّقَةٍ بِالْمَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ السَّائِلَةِ الَّتِي لَا تَتَوَقَّفُ عَنْ مَسِيرَةِ التَّغْيِيرِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّبَدُّلِ، وَعَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ أَيْضًا يَبْدُو هَذَا التَّغْيِيرُ مُتَوَافِقًا مَعَ مَقُولَةِ هيرقليطس فِي التَّغْيِيرِ الدَّائِمِ: "لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَسْتَحِمَّ فِي مَاءِ النَّهْرِ الْوَاحِدِ مَرَّتَيْنِ؛ لِأَنَّ مِيَاهًا جَدِيدَةً تَجْرِي مِنْ حَوْلِكَ أَبَدًا" (3).

فَالْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَتَفَاعَلُونَ يُنْتِجُونَ الرُّمُوزَ، ثُمَّ يَحْمِلُونَهَا الْمَعَانِي الَّتِي تَتَغَيَّرُ ضِمْنَ دَوْرَةِ تَغْيِيرٍ لَا تَتَوَقَّفُ، وَهُمْ فِي سِيَاقِ عَمَلِيَّةِ الْإِنْتِاجِ لِلْمَعْنَى يُغَيِّرُونَ سُلُوكَهُمْ، وَيَتَغَيَّرُونَ وَفَقَ الْمَوَاقِفِ الْمُتَغَيَّرَةِ فِي حَرَكَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ مِنْ عَمَلِيَّةِ إِنْتِاجِ الرَّمْزِ وَالتَّغْيِيرِ فِي الْمَعَانِي. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا تُوجَدُ طَرِيقَةٌ وَاحِدَةٌ يُمَكِّنُ مِنْ خِلَالِهَا التَّنَبُّؤَ بِالْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي سَيَسْتَجِيبُ بِهَا الْأَفْرَادُ ضِمْنَ وَضْعِيَّاتِ سِيَاقِيَّةٍ حَيَاتِيَّةٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ تَفَاعُلٍ يَقُومُ بِهِ الْفَرْدُ مَعَ الْآخَرِ أَوْ مَعَ وَضْعِيَّةٍ إِجْتِمَاعِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ يَأْخُذُ طَابِعًا رَمْزِيًّا دَلَالِيًّا مُخْتَلِفًا. وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يَعْتَمِدُهُ Blumer فِي تَأْكِيدِهِ عَلَى تَغَايِرَةِ السُّلُوكِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّنَبُّؤِ بِهِ لِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ فَرَادَةٍ وَتَفَرُّدٍ تَحْكُمُهُمَا الظُّرُوفُ وَالسِّيَاقَاتُ الْإِجْتِمَاعِيَّةُ الْمُتَغَيَّرَةُ أَبَدًا (4).

(1) - Meltzer, B. N., & Petras, J. W. (1970). The Chicago and Iowa schools of symbolic interactionism. Human nature and collective behavior, 3-17.

(2) - Collins, R. (1994). The microinteractionist tradition. Four sociological traditions, 242-290.

(3) - و.ك. س. جثري، الفلاسفة الإغريق من طاليس إلى أرسطو، ترجمة رأفت حليم سيف، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، مطابع الطليعة، الكويت، 1988 ص 122.

(4) - Del Casino, V. J., & Thien, D. (2009). Symbolic interactionism. In International encyclopedia of human geography (pp. 132-137): Elsevier Inc.

2-8- مدرّسة أَيْنديانا (Indiana School):

تعدّ مدرّسة "أَيْنديانا" للتفاعل الرمزي إحدى أهمّ المدارس التفاعلية الرمزية، ويُعدّ شيلدون سترايكر (Sheldon Stryker (1924-2016)) من أبرز رُوادِ هذه المدرّسة وأكثرهم شهرةً. ويُعرف أصحاب هذه المدرّسة بتركيزهم على مفهوم التفاعل البنائيّ والبُحوث الاستقصائية والمناهج التجريبية (على خلاف مدرّسة شيكاغو التي تُركّز على الإثنوغرافيا والمقابلات النوعية المتعمّقة)، ويُعتقد أصحاب هذه المدرّسة أنّ المنهجية الوصفية الإثنوغرافية لم تتمكّن من دراسة البنية الاجتماعية والظواهر الكبرى في المجتمع، وهو يعارض الفكرة التي تقول إنّ النظريات التفاعلية لا يمكن أن تستقيم مع منهجية الأساليب الكمية والتجريبية.

في كتابه -الموسوم بـ"التفاعل الرمزي: نسخة بنيوية اجتماعية" (Interactionism: A Social Structural Version) المنشور عام 1980- يوجّه سترايكر نقده لـكلاسيكيات التفاعل الرمزي في مدرّسة شيكاغو، ويبحث في مزايا ومثالب هذه النظرية، ويحاول أن يرصد حركتها المستقبلية. وهو يقدّم في كتابه هذا تصوّراً جديداً للنظرية التفاعلية تقوم على تأكيد الطابع البنيوي التجريبي في هذه النظرية، ويتناول وفق هذا المنهج ديناميات تشكّل الهوية من خلال الدور والموقف، ويبحث في مظاهر التغيرات التي ترافق عملية بناء الهوية وفقاً لرؤيته البنيوية التجريبية. وقد وجد كتابه هذا - بما ينطوي عليه من رؤية نقدية وتصوّرات جديدة لتطوير التفاعلية الرمزية - صدقاً كبيراً في الأوساط العلمية إلى الحد الذي أبدى فيه عالم الاجتماع الأمريكي جونانان إتش تيرنر -الأستاذ في جامعة كاليفورنيا- إعجاباً بالمعطيات الجديدة التي تضمّنها كتاب سترايكر المشار إليه آنفاً. وهو الكتاب الذي يتضمّن ما يمكن أن يُسمّى بـ"نظرية التفاعل الرمزي البنيوي". ويلاحظ في هذا المسار أنّ سترايكر يركّز على نظرية جورج هربرت ميد حول اكتساب الدور والهوية من خلال التفاعل الرمزي الذي يبدأ منذ مرحلة الطفولة، ويستمرّ على مدى مراحل الحياة المتعاقبة، وذلك لأنّ الدور الاجتماعي يشكّل نسقاً متواصلاً من الممارسات والسلوكيات التي يتخذها الفرد خلال حياته، ويتمّ تنظيم هذه الممارسات والسلوكيات من خلال المواقف الاجتماعية التي يتولّى فيها الفرد سلسلة لا تنتهي من الأدوار المطلوبة للتفاعل والتكيف في داخل المجتمع.

3-8- مدرسة أيوا للتفاعل الرمزي (Iowa School):

يتصدّر السوسولوجي الأمريكي مانفورد كون (Manford Kuhn) (1911-1963) مدرّسة أيوا (Iowa School) للتفاعل الرمزي، وتتميّز هذه المدرّسة بالتركيز على المناهج المنطقية والتجريبية لقياس السلوك الاجتماعي التفاعلي، وتأخذ أنصارها على نظرية شيكاغو وزعيمها بلومر بأنهم يركّزون على الجوانب اللغوية اللفظية في السلوك الرمزي، وهملون الجوانب الميدانية التي تعتمد على القياس والتنبؤ في مجال فهم السلوك الاجتماعي. ويؤيّل "كون" أهميّة بالغة للبنية الاجتماعية للظواهر الاجتماعية، ويأخذ بعين الاعتبار تأثيرها في السلوك الفردي، كما يركّز على أهميّة الأحداث السابقة في تشكيل السلوك الراهن للفرد والتنبؤ بمساراته السلوكية المستقبلية المتوقعة، ويؤشّد على أهميّة دراسة التفاعل الاجتماعي بمنهجية تؤكد على

التَّرابِطِ التَّفَاعُلِيِّ بَيْنَ نِيَّةِ الْفَرْدِ وَالشُّعُورِ بِتَعَاقُبِ الزَّمَنِ وَالطَّرِيقِ الَّتِي يُصَحِّحُونَ بِهَا أَنْظِمَةَ الْمَعَانِي الْخَاصَّةِ بِهِمْ.

رَكَزَ "كون" عَلَى أَهْمِيَّةِ دِرَاسَةِ الْمَجْمُوعَاتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَضُمُّ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، شَخْصَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، وَأَكَّدَ إِمْكَانِيَّةَ دِرَاسَةِ السُّلُوكِ الْإِجْتِمَاعِيِّ فِي الْمَجَالِ الْوَاقِعِيِّ بِصِفَةِ عَامَّةٍ، أَوْ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ فِي الْمُخْتَبَرَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُجَهَّزَ تَجْرِبِيًّا، وَوَجَدَ أَنَّ الْمَرْجَّ بَيْنَ الْإِتِّجَاهَيْنِ وَتَنْوِيعِ الْمَنْهَجِيَّاتِ يُسَاعِدَانِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْقَوَانِينِ الْمُجَرَّدَةِ لِلْسُّلُوكِ الْإِجْتِمَاعِيِّ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَنْطَبِقَ عَلَى الْأَشْخَاصِ فِي الْمَوْسَّسَاتِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا الْمَوْسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي رَدَّهَاتِ الْجَامِعَاتِ.

وَاسْتَطَاعَ "كون" أَنْ يُعَبِّرَ عَنِ تَوَجُّهَاتِهِ التَّجْرِبِيَّةِ فِي بَحْثِهِ الْمَشْهُورِ "الْحَالَاتُ الْعِشْرُونَ" (Twenty Statements)، وَهِيَ الْمَنْهَجِيَّةُ الَّتِي يَبَيِّنُ فِيهَا إِعْتِرَاضَهُ عَلَى مَنْهَجِيَّةِ بِلومر الَّذِي يَرْفُضُ الْإِخْتِبَارَاتِ التَّجْرِبِيَّةِ وَالضَّبْطَ التَّجْرِبِيَّ فِي مَجَالِ التَّفَاعُلِ. فَفِي هَذِهِ التَّجْرِبَةِ (الْحَالَاتُ الْعِشْرُونَ) طَلَبَ كُونُ مِنَ الْمُشَارِكِينَ الْإِجَابَةَ عَلَى سُؤَالٍ وَحِيدٍ هُوَ: "مَنْ أَنَا؟" وَطَلَبَ مِنْ أَفْرَادِ الْعَيِّنَاتِ تَفْدِيمَ إِجَابَةٍ عَلَى عِشْرِينَ بِنْدًا يَتَحَدَّثُونَ فِيهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِي 20 سَطْرًا مَرْقَمًا. وَمِنْ ثَمَّ قَامَ "كون" بِتَرْمِيزِ هَذِهِ الْإِسْتِجَابَاتِ إِحْصَائِيًّا، وَبِصُورَةٍ مَنْهَجِيَّةٍ بِقَصْدِ التَّعَرُّفِ عَلَى الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي يُفَكِّرُ بِهَا الْأَفْرَادُ فِي هُوِيَّتِهِمْ وَحَالَتِهِمْ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَفِيمَا بَعْدُ قَامَ وَالْبَاحِثُونَ الْمُسَاعِدُونَ بِتَحْلِيلِ الْإِجَابَاتِ وَتَفْسِيرِهَا ضَمَّنَ مَقْصِدِ الدِّرَاسَةِ وَهُوَ التَّعَرُّفُ عَلَى النَّمَطِ الْفِكْرِيِّ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي يَحْكُمُ ذَهْنِيَّةَ أَفْرَادِ الْعَيِّنَةِ. ثُمَّ قَامَ بِتَحْوِيلِ الْأَفْكَارِ الْحَاصِلَةِ إِلَى مُتَغَيَّرَاتٍ قَابِلَةٍ لِلْقِيَاسِ مُفْتَرَضًا وَجُودَ ذَوَاتٍ مُسْتَقَرَّةٍ وَثَابِتَةٍ نَسْبِيًّا.

وَقَدْ عَمَلَ كُونُ عَلَى الرِّبْطِ بَيْنَ نَتَائِجِ الْإِخْتِبَارِ وَالْأَوْضَاعِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ لِلْمُسْتَجْوِبِينَ، وَخَرَجَ بِنَتَائِجٍ دَقِيقَةٍ حَوْلَ قَانُونِيَّاتِ التَّفَكِيرِ فِي الْهُوِيَّةِ الدَّائِيَّةِ عِنْدَ الْأَفْرَادِ الْمَعْنِيِّينَ بِالْإِخْتِبَارِ. وَهُنَا يَتَّضِحُ الْفَارَقُ الْكَبِيرُ بَيْنَ مَنْهَجِيَّتِي "كون" وَ"ميد"، إِذْ تَتَّضِحُ مَعَالِمُ الضَّبْطِ التَّجْرِبِيِّ الْقَانُونِيِّ فِي مَنْهَجِيَّةِ "كون"، بَيْنَمَا تَقِفُ مَنْهَجِيَّةُ "ميد" عِنْدَ عَتَبَاتِ التَّفْسِيرِ الْمَحْضِ الَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ حُدُودَ التَّأَمُّلِ الدَّائِيَّ وَالتَّفْسِيرِ الشَّخْصِيِّ لِلْبَاحِثِينَ⁽¹⁾. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يُعْلِنُ "كون" وَأَنْصَارُ مَدْرَسَتِهِ "الْأَيُّوَّة" عَنْ نَقْدِهِمُ الشَّدِيدِ لِمَنْهَجِيَّاتِ مَدْرَسَةِ شِيكََاغُو الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى مَا يُسَمَّى بِالتَّقْلِيدِ الشَّفَهِيِّ Oral Tradition. وَاعْتَرَضُوا عَلَى مَنْهَجِيَّةِ تَنَاوُلِ الظَّاهِرَةِ التَّفَاعُلِيَّةِ مِنْ خِلَالِ سَرْدِ تَأَمُّلِيٍّ وَصَفِيِّ يَدْعِي الْقُدْرَةَ عَلَى فَهْمِ الظَّوَاهِرِ التَّفَاعُلِيَّةِ وَتَأْوِيلِهَا فِي نَسَقٍ مِنَ الْمَعَانِي وَالِدَّلَالَاتِ، وَرَفَضُوا كُلَّ صِبْغِ الْمُنَاطَرَاتِ الشَّكْلِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْمَعَانِي وَالرُّمُوزِ الشَّفَاهِيَّةِ التَّأَمُّلِيَّةِ دُونَ الْعَمَلِ عَلَى تَرْجَمَتِهَا وَاسْتِكْشَافِ قَانُونِيَّاتِهَا فِي نَسَقٍ مِنَ الْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ الرَّصِينَةِ الْخَلَاقَةِ⁽²⁾.

يُرَكِّزُ "كون" عَلَى دِرَاسَةِ مَفْهُومِي الدَّاتِ وَالذَّوْرِ وَمَعَ إِخْتِبَارِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا عَنْ طَرِيقِ الْبَحْثِ التَّجْرِبِيِّ، وَتَرَى أَنَّ إِزْتِبَاطَ الذَّوْرِ بِالتَّفَاعُلِ الرَّمَزِيِّ يَتِمُّ فِي عَمَقِ الْبِنْيَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ بِوَصْفِهَا نَسَقًا مِنْ تَفَاعُلِ الْأَدْوَارِ وَالْمَرَكَزِ الْمُتَكَامِلَةِ وَظَيْفِيًّا وَرَمَزِيًّا. وَيُؤَكِّدُ فِي السِّيَاقِ نَفْسِهِ أَنَّ التَّفَاعُلَ الرَّمَزِيَّ يُحْدِثُ تَغْيِيرَاتٍ عَمِيقَةً فِي الْبِنْيَةِ

1- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 121.

2- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الرامخ ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 184.

الاجتماعية، ويرسّم البناء الاجتماعي، بدوره، حدود هذا التفاعل، ويحدّد مساره ويشكّل الإطار العام لحركته ونشاطه. ويبحث كون في التكوينات الأساسية "للذات"، وفي عناصرها، ويميّز في هذا المسار بين الأنا الداخلية والأنا والخارجية، ويركّز في مباحثه على الجوانب الخارجية للذات، وهي التي تتمثل في "مجموعة التوقعات التي يستخدمها الأشخاص، ويكوّنونها عن ذواتهم، وتكون مشتقةً أيضاً من سلوك أولئك الأشخاص الآخرين تجاه الذات، ويمكن أن تخضع هذه التوقعات للملاحظة"⁽¹⁾.

ويذهب كون إلى الاعتقاد بأنه يمكن للباحثين التنبؤ بالسلوك الاجتماعي للأفراد والجماعات بناءً على معطيات التفاعل الرمزي بين الدور وتوقعاته⁽²⁾. ويوظف مفاهيم متعدّدة مثل: المكانة، والدور، وأنجازات الدور، وتوقعات الدور، للكشف عن المضامين الحيوية للهوية الفردية. واستطاع أن يقدم تعريفات إجرائية واضحة لمختلف المفاهيم التي استخدمها بشكل واضح، ويعدّ هذا الأمر خروجا واضحا على التوجهات الأساسية للنظرية الرمزية التقليدية، إذ يلجأ إلى المنهجيات الوضعية التي تعتمد القياس والتجربة والفرصيات والاختبارات الميدانية للفروض والمنطلقات النظرية⁽³⁾.

4-8- اختلاف المدارس :

تنطوي التفاعلية الرمزية على تناقضات فكرية واختلافات منهجية واضحة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التنوع المدرسي داخل هذا التيار الفكري⁽⁴⁾. وقد أوضحنا أن كلّ مدرسة من مدارس التفاعلية الرمزية تركّز على توجه معين، ففي الوقت الذي ركّزت فيه مدرسة شيكاغو على التأويل وصيرورة المعاني والدلالات، ركّزت مدرسة أيوا على أهمية قياس الأفكار والنظر إليها بوصفها متغيّرات قابلة للقياس، مفترضة أن الذات مستقرّة وثابتة نسبياً⁽⁵⁾.

وعلى هذا النحو يتجلى الاختلاف الجوهرية في تباعد المنهجيات الفكرية بين مدرستي أيوا وشيكاغو من جهة، ونظرية جورج هزبرت ميد المؤسس الفعلي لهذا الاتجاه، وقد وصل هذا الإفتراق مداه في مدرسة أيوا عندما وجّه رؤاؤها، بزعامة مينفورد كون، نقداً شديداً وعنيفاً لنظرية جورج ميد، مفاده أن مفاهيم ميد وتصوّراته التفاعلية مستلهمة من مفهومات علم النفس الاجتماعي، ومن محض التصوّرات السيكلولوجية القديمة التي فقدت بريقها وقدرتها على الصمود في عالم الفكر الاجتماعي المعاصر، وهي لا تعدو أن تكون تصوّرات ورؤى قد أتت عليها الرمان، وتمّ تجاوزها منذ زمن بعيد، ولم تعد تفيّد في دراسة الواقع الحياتي، وقد خرج مينفورد كون ممثلاً لهذه المدرسة عن التوجهات المنهجية الكبرى لمدرسة ميد باستخدامه المقاييس الكمية والدراسات التجريبية الميدانية في مجال التفاعل الرمزي، وهو خروج يضع التفاعلية الرمزية قاب

1- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الراجح ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 179.

2- المرجع نفسه، ص 178.

3- المرجع نفسه ص 179.

4- المرجع نفسه، ص 174.

5- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة: محمد حسين غلوم، مراجعة: محمد عصفور، الكويت: عالم المعرفة، العدد 244، 1999، ص 121.

قوسين أو أدنى من الوضعية البنيوية في مناهجها التجريبية، وتؤكد هذه المدرسة على أهمية ترجمة الأفكار والمعاني والدلالات إلى متغيرات قابلة للتجريب والقياس والإفراض والإختبار⁽¹⁾.

وإساقاً مع هذه الرؤية، كما بينا أعلاه، فإن مدرسة "أينديانا" بزعامة شيلدون سترايكر ((Sheldon Stryker قد أكدت على مفهوم التفاعل البنيوي، ومكنت لنفسها في مجال البحوث الإستقصائية والمناهج التجريبية، وذلك على خلاف مدرسة شيكاغو التي تركز على الإثنوغرافيا والمقابلات النوعية المتعمقة. ويعتقد أنصار هذه المدرسة أن المنهجية الوصفية الإثنوغرافية لم تتمكن من دراسة البنية الاجتماعية والظواهر الكبرى في المجتمع، وهو يعارض الفكرة التي تقول إن النظريات التفاعلية لا يمكن أن تستقيم مع منهجية الأساليب الكمية والتجريبية.

وفي هذا الإتجاه مارست مدرسة شيكاغو، بزعامة بلومر، فعاليتها النقدية الموجهة ضد نظرية جورج ميد، وعملت على إحداث تعديلات جوهرية في بنيتها وتصوراتها. فمدرسة شيكاغو تركز على التفاعل الإنسيابي التأويلي، وتركز على الطرائق والكيفيات التي تأخذها المعاني في مسارات تطورها وتنميتها وتغيرها. وكلاهما - أي المدرستان - تختلف عن مدرسة جورج ميد الذي ركز على وصف ما يجري في الواقع والإكتفاء بملاحظته وتفسيره وتأويله⁽²⁾. وقد انفردت مدرسة التمثيل المسرحي عند كوفمان بالتأكيد على الطابع الرمزي التمثيلي للحياة الاجتماعية.

وبإختصار يمكن القول إن تعدد المدارس في داخل التفاعلية الرمزية يشكّل بدايته مؤشراً على وجود إختلافات جوهرية في قلب التيار التفاعلي الرمزي، وقد يكون تعبيراً عن التطورات الفكرية التي تشهدها التيارات الفكرية الكبرى.

9- نقد التفاعلية الرمزية:

يشكّل النقد المعرفي منهجاً أصيلاً في البحث والإستكشاف السوسولوجي، كما يشكّل، في الوقت ذاته، طاقة معرفية تعتمد في إستكشاف الجوانب الخفية من الأعمال العلمية والمعرفية. ويتميز النقد السوسولوجي للأعمال المعرفية بأهمية كبرى في توجيه هذه الأعمال وإستكشاف الأصالة العلمية للنظريات والبحوث المعرفية على إختلاف توجهاتها ومساراتها الفكرية والأيدولوجية، ومن البدهة القول إن النقد يوظف في تفنيد مُعطيات النظريات وتحديد مكانتها وقياس أوجه قوتها وأوجه ضعفها وقصورها. ومما لا خلاف عليه بين أهل العلم والمعرفة، أن النقد الموضوعي يمنح النظريات قيمتها العلمية، ويوجه مساراتها نحو أفضل السبل المعرفية، كما يمنحها القدرة على تطوير مناهجها وتجاوز الثغرات العلمية التي تتخللها، كما يمكنها من تجاوز أوجه قصورها وضعفها وتصحيح مساراتها الأيدولوجية لتكون أكثر أصالة ومنعة، وأكثر قدرة على ممارسة دورها في الإستكشاف الإبداعي في مختلف القضايا المعرفية التي تباشرها.

1- شحاته صيام، القهر والحيلة، أنماط المقاومة السلبية في الحياة اليومية، كتب عربية كوم، 2023/3/14.

<https://ia800307.us.archive.org/25/items/kawkb-zahiri/48.pdf>

2- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة: محمد حسين غلوم، مرجع سابق، ص 121.

وفي ظلّ هذا التصوّر الموضوعي لأهميّة النقد المعرفي، استحققت التفاعلية الرمزية أن تكون في مركز الاهتمامات النقدية للباحثين والدارسين والنقاد الذين كرسوا جهودهم في مجال استكشاف أبعاد هذه النظرية وضبط حدودها، وتحديد معالم قوتها وضعفها ضمن نسق من التصورات النقدية التي استطاعت أن تكشف الغطاء عن تضاريس هذه النظرية - إن صحّت التسمية - وأن ترسم لها مسارات جديدة تمكّنها من توجيه منظورها الإبداعي في مجال الإنتاج المعرفي، وتجعلها أكثر فدرّة على تطوير مفاهيمها وتوسيع حطّها نحو نظرية علمية متكاملة الأزكان سوسولوجياً ومنهجياً.

9-1- النقد الداخلي الذاتي:

من الواضح البين أن التفاعلية الرمزية قد شهدت مدّاً داخلياً من النقد الذاتي الداخلي المتواتر. ولو تأملنا أيضاً الحركة التاريخية لتطور البنائية، لوجدنا بأنّ هذا التطور لم يكن على درجة كبيرة من الإنسجام فيما بين زوايدها. وقد لاحظنا، في تناولنا للمدارس الثلاث، وجود مفارقات كبيرة وتناقضات واضحة بين هذه المدارس.

وتبيّن الدراسات في هذا السياق أنّ التفاعلية الرمزية قد تعرّضت لموجتين من النقد: الأولى: داخلية (In House Criticisms)، والثانية: خارجية. وقد تناولنا في معرض حديثنا عن مدارس التفاعلية الرمزية النقد الذي وجهه كلٌّ من أنصار مدرسة "أيوا" ومدرسة "أينديانا" إلى مدرسة شيكاغو، وتمحور هذا التركيز، كما أشرنا إليه سابقاً، على الطابع التأملي التاويلي لمدرسة شيكاغو التي رفضت المنهجيات الكميّة والإحصائية التي فرضت نفسها في علم اجتماع الكليات (البنائية والماركسيّة والوضعية)، واتّجّهت المدرستان (أنديانا وأيوا) على خلاف مدرسة "شيكاغو" إلى الإقرار بأهميّة المناهج الكميّة التفسيرية لضبط الظواهر التفاعلية. ولممكننا أن نورد ما سبق أن أشرنا إليه من نقد المدرستين الأخيرتين لمدرسة شيكاغو الممثّلة بشخصية بلومر، وذلك على يد مانفورد بوصفه زعيم مدرسة أيوا، وعلى يد شيلدون سترايكر زعيم مدرسة أينديانا.

لقد ركّز أصحاب مدرسة أينديانا بزعامة شيلدون سترايكر على مفهوم التفاعل البنائي والبحوث الاستقصائية والمناهج التجريبية، وذلك على خلاف مدرسة شيكاغو التي ركّزت على الإثنوغرافيا والمقابلات النوعية المتعمّقة. وكما بيّنا سابقاً، فإنّ أصحاب هذه المدرسة يرون أنّ المنهجية الوصفية الإثنوغرافية (المُعتمّدة في مدرسة شيكاغو) غير مؤهلة لدراسة البنية الاجتماعية والظواهر الكبرى في المجتمع، وقد عارض سترايكر الفكرة التي تقول إنّ النظريات التفاعلية لا يمكن أن تستقيم مع منهجية الأساليب الكميّة والتجريبية. وفي هذا الأمر نقد كبير للمدرسة الأساسيّة لمدرسة شيكاغو بزعامة بلومر وهيربرت ميد. ومنه توجيه سترايكر لنقده لكلّاسيكيات التفاعل الرمزي لمدرسة شيكاغو، وقد حاول أن يرصد حركتها المستقبليّة، وهو يؤكد على أهميّة التجربة في استكشاف أبعاد التفاعل الاجتماعي. وعلى الرغم من التمايز والتباين والتفارق المنهجي بين التيارات الداخلية لهذا التيار، فإنّ ما يجمعهم هو البحث في ثلاثية الرمز والعقل والإنسان، وفي هذه العناصر الأوليّة للتفاعل الاجتماعي: الرمز، المعنى، العقل والإنسان.

وَمِنَ الْإِنْتِقَادَاتِ الَّتِي أَخَذَهَا بِهَا التَّفَاعُلِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ أَنَّ النَّظْرِيَّةَ كَانَتْ يَكْتَنِفُهَا كَثِيرٌ مِنَ الْغُمُوضِ، وَأَنَّهَا تَفْتَقِرُ، بِشَكْلِ كَبِيرٍ، إِلَى الْوُضُوحِ الْمَفَاهِيمِيِّ، كَمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَيْضاً أَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ لَمْ تَحْطَ بِتَعْرِيفٍ دَقِيقٍ وَهِيَ مَا زَالَتْ، حَسَبَ رَأْيِهِمْ، فِي أَمْسِ الْحَاجَةِ إِلَى بِنَاءِ مُصْطَلَحَاتِهَا وَتَحْدِيدِهَا بِدَقَّةٍ (1). وَتَجَدُّرُ الْإِشَارَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَى أَنَّ بَعْضَ التَّفَاعُلِيِّينَ الْأَحْدَثِ حَاوَلُوا رَدْمَ هَذِهِ الْجَوَانِبِ الْمُتَعَبَّرَةِ فِي السَّبْعِيْنِيَّاتِ وَالْثَمَانِيْنِيَّاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْمَاضِي. وَقَدْ تَصَدَّرَ دَيْفِيدُ سَنُو هَذَا الْإِتِّجَاهِ، وَحَاوَلَ جَاهِداً مَعَ عَدَدٍ مِنَ التَّفَاعُلِيِّينَ شَرْحَ مَفَاهِيمِ التَّفَاعُلِيَّةِ وَإِيجَادَ رَوَابِطَ بَيْنَهَا لِتَمَكِينِهَا مِنَ الْإِرْتِقَاءِ إِلَى مُسْتَوَى النَّظْرِيَّةِ الْمُتَكَامِلَةِ.

وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ هُوَ تِلْكَ الْإِنْتِقَادَاتُ الَّتِي أَنْارَهَا كُلُّ مَنْ كَوَّنَ (Kuhn) وَدِينَزَنَ (Denzin) وَهَالَ (Hall)، وَمِنْ أَكْثَرِهَا أَهْمِيَّةٌ أَنَّ كَوْنَ يُصْرَحُ بِأَنَّ "التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمَزِيَّةَ تُعَانِي فِي الْحَقِيقَةِ مِنْذُ فَتْرَةٍ كَبِيرَةٍ؛ مِمَّا يُطْلَقُ عَلَيْهِ بِالْتَقْلِيدِ الشِّفَاهِيِّ (Oral Tradition) لِأَنَّهَا عَالَجَتْ مُعْظَمَ الْأَفْكَارِ بِبَسَاطَةِ نَظْرِيَّةٍ وَتَعْبِيرِيَّةٍ، هَذَا دُونَ الْإِهْتِمَامِ مِنْ جَانِبِهِمْ بِمُحَاوَلَةِ تَرْجَمَتِهَا إِلَى بُحُوثٍ خَلَاقَةٍ وَذَاتِ فَاعِلِيَّةٍ (2).

9-2- النقد الخارجي:

يَرَى كَثِيرٌ مِنَ النُّقَادِ - مِنْ مَدَارِسٍ أُخْرَى - أَنَّ التَّفَاعُلِيِّينَ الرَّمَزِيِّينَ أَهْمَلُوا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ مَنَاهِجَ الْبَحْثِ الْكَمِّيَّةَ بِدَوَافِعٍ أُيدِيُولُوجِيَّةٍ فَرَضَهَا الصِّرَاعُ الْقَدِيمُ بَيْنَ أَنْصَارِ التَّأْوِيلِ وَأَنْصَارِ التَّفْسِيرِ فِي عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا أَعْلَاهُ أَنَّ هَذَا النُّقْدَ يُلَامِسُ مَدْرَسَةَ شِيكَاغُو دُونَ غَيْرِهَا، لِأَنَّ زُعَمَاءَ مَدْرَسَتِي (أَيُوا وَأَنْدِيَانَا) قَدْ وَجَّهًا بِدَوْرِهِمَا النُّقْدَ إِلَى مَدْرَسَةِ شِيكَاغُو مُعْلِنِينَ أَنَّ الْبَحْثَ التَّدْرِيْبِيَّ يُشَكِّلُ ضَرْوَرَةً حَيَوِيَّةً. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ النُّقْدَ الدَّخِلِيَّ لِهَذِهِ النُّقْطَةِ قَدْ سَبَقَ النُّقْدَ الْخَارِجِيَّ. وَبِلَا حِظٍّ، فِي هَذَا السِّيَاقِ، أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النُّقْدِ يُلَامِسُ مَدْرَسَةَ شِيكَاغُو بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى، دُونَ أَنْ يَقَعَ فِي شِبَاكِ مَدْرَسَتِي أَيُوا وَأَنْدِيَانَا بِزُعَامَتِي مَانْفُورْدِ وَسْتْرَايَكِر.

وَمِنَ الْإِنْتِقَادَاتِ الَّتِي وَجَّهَتْ أَيْضاً إِلَى التَّفَاعُلِيَّةِ تَنَمَثُّلُ فِي نَقْدِ الْإِنطِبَاعِيَّةِ الذَاتِيَّةِ الَّتِي غَمَرَتْ الْبُحُوثَ التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمَزِيَّةَ، وَلَا سِيَّما فِي مَدْرَسَةِ بِلومر. كَمَا يُؤْخَذُ عَلَى التَّفَاعُلِيَّةِ اسْتِعْرَاقُهَا فِي التَّرْكِيزِ الضِّيْقِ عَلَى التَّفَاعُلِ ضَمَّنَ فِضَاءِ الْمَجْمُوعَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الصَّغِيرَةِ، وَمِنْ ثَمَّ عَلَى الْجَانِبِ السِّبْكُولُوجِيِّ فِي دِرَاسَةِ أَوَاصِرِ هَذَا التَّفَاعُلِ.

وَمِنْ أخطرِ الْإِنْتِقَادَاتِ وَأَهْمِهَا، تِلْكَ الَّتِي وَجَّهَتْ لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمَزِيَّةِ أَنَّهَا لَا تُشَكِّلُ نَظْرِيَّةً مُتَكَامِلَةً الْأَرْكَانِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِوُضُوحِ مَفَاهِيمِهَا وَتَرَابِطِ فَرَضِيَّاتِهَا، وَتَكَامُلِ مَنَهْجِيَّاتِهَا. وَعَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، يَرَى كَثِيرٌ مِنَ النُّقَادِ أَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمَزِيَّةَ تُشَكِّلُ إِطَاراً نَظْرِيّاً عَامّاً يَفْتَقِرُ إِلَى بِنَاءِ الْمَفَاهِيمِ النَّظْرِيَّةِ الْوَاضِحَةِ الْمُتْرَابِطَةِ الْمُتَكَامِلَةِ. وَيُمْكِنُ الْإِشَارَةَ فِي هَذَا السِّيَاقِ إِلَى نَقْدِ مِيلْتَزَر (Meltzer) لِعِلْمِ النَّفْسِ الْاجْتِمَاعِيِّ عِنْدَ هَرْتزْتْ ميد الَّذِي يَقُولُ: "إِنَّ مِيدَ اسْتَحْدَمَ مَفَاهِيمَ غَامِضَةً وَلَا سِيَّما مَفَاهِيمَ: «الدَّافِع»، وَ«الْمَعْنَى» وَ«العَقْل» وَ«اِكْتِسَابُ الدَّوْرِ»، وَ«الْأَخْرُ الْمُعَمَّم»، «الْأَنَا»، حَيْثُ يَتَطَلَّبُ فَهْمُهَا إِدْرَاكاً حَدْسِيّاً، كَمَا تَرْجِعُ تِلْكَ الْأَخْطَاءُ

1- Reynolds, Larry. 1993. Interactionism: Exposition and critique. Rowman & Littlefield. Rock, Paul. 2016. Making of symbolic interactionism. New York: Springer

2- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الرامخ ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 184.

التي تعاني منها نظريته إلى تجاهله للعناصر العاطفية واللاشعورية في السلوك الإنساني، كما أن نظريته قد أثارت بعض الصعوبات المنهجية التي يصعب بحتمها، واحتوت أساليب غير واضحة⁽¹⁾. ويؤيد هذا التوجه النقدي أن التفاعلية تنطوي في ذاتها على عدة مدارس متناقضة منهجياً وفكرياً، وقد أشرنا إلى هذه النقطة في سياق الانتقادات الداخلية، وأشرنا إلى بعض المحاولات المتأخرة لإستكمال البعد النظري وتوضيح المفاهيم الضرورية لرصد العلاقة القائمة بين أوصالها.

والنقد الأكثر خطورة هو أن النظرية إنكفأت على نفسها في شرنقة التحليل الذري المصغر للتفاعل الاجتماعي بين أصغر الجماعات، وأن هذه النظرية لم تجرؤ على تناول القضايا السياسية والاجتماعية والطبقية وقضايا الحياة مثل: القوة، والسلطة، والظلم والفقر، واللامساواة، وتمهيش السود في مجتمعات البيض، والصراع بين الطبقات الاجتماعية، ومدى تأثير هذه الظواهر في التفاعل نفسه أو تأثير التفاعل الرمزي في تشكيل هذه الظواهر، وفي التأثير فيها. وهذا ما عبّر عنه بيتر هول، - أحد أنصار التفاعلية الرمزية- وهو أن التفاعلية لم تنجز أي جهد في إستكشاف أو معرفة تأثير التفاعل الرمزي في التفاعلات السياسية⁽²⁾.

وعلى هذا المنوال ذهب بعض النقاد إلى القول: إن التفاعل الرمزي ممارسة سوسولوجية سيكولوجية غير تاريخية أو اقتصادية أو سياسية. وقد أحقق هذا التيار في تناول الظروف التاريخية والاقتصادية المؤثرة بالتفاعل الرمزي والمؤثرة فيه⁽³⁾. وهذا الأمر لا يخفى على العارفين، لقد أحقق التفاعليون في تناول القضايا الكبرى في المجتمع، وأهملوا تناول الظواهر الاجتماعية الكبرى والمؤسسات الاجتماعية الضخمة في دراساتهم وأبحاثهم، وظلت إهتماماتهم سجيننة التفاعل داخل دائرة الحياة الاجتماعية الذرية الصغرى في نطاق الحياة اليومية.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى بعض المحاولات السوسولوجية التي عملت على تلافي هذا النقد والرد عليه. وهذا ما أشار إليه جيل موسولف (Musolf, Gil) في مقالة له بعنوان: "البنية والمؤسسات والسلطة والأيدولوجية: اتجاهات جديدة في إطار التفاعل الرمزي"، وهي المقالة التي حاول فيها الإشارة إلى أن التفاعل الرمزي يمكنه أن يمارس دوره في إستكشاف العلاقة الجدلية بين التفاعل الرمزي والظواهر الكبرى تأثيراً وتأثراً في مجال الفعالية السوسولوجية⁽⁴⁾.

ومع أهمية ما ذهب إليه موسولف، فإن هذا السيل النقدي الموجه للتفاعلية الرمزية يؤكد أن التفاعلية الرمزية قد أغفلت فعلاً الظواهر الاجتماعية الكبرى والمؤسسات الاجتماعية الضخمة التي تمثل الفضاء

1- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الراجح ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 183.

2- Reynolds, Larry. 1993. Interactionism: Exposition and critique. Rowman & Littlefield. Rock, Paul. 2016.

Making of symbolic interactionism. New York: Springer

3- Ibid.

4- Musolf, Gil. 1992. "Structure, institutions, power, and ideology: New directions within symbolic interactionism." Sociological Quarterly, 33 (2):171-189. P 185.

الأوسع في البناء الاجتماعي، ويمتد هذا النقد للتأكيد على أن التفاعلية الرمزية لم تستطع أبداً أن تقول: "أي شيء عن ظواهر اجتماعية كبرى مثل القوة والصراع والتغير، وأن صياغاتها النظرية مغلقة في الغموض، وأنها تقدم صورة ناقصة عن الفرد. وعادة ما تطرح هذه النقاط كما لو أنها انتقادات بينة بذاتها: فحتى الأبله باستطاعته أن يرى البنى الاجتماعية ويتحسس تأثيراتها، والسادج وحده هو الذي سيقنع بصياغات نظرية غامضة، ومن الواضح أن علم الاجتماع بحاجة إلى نظرية أكثر عمقاً ومسؤولاً عن الفرد في تفاعله مع أكثر القضايا الوجودية أهمية وحضوراً وتأثيراً"⁽¹⁾.

وهذا هو عين النقد الذي يوجهه كل من ميتشال وروبين (Michael & Robein. H)، إذ يريان "أن أنصار التفاعلية الرمزية يهتمون بدراسة التفاعل الإنساني والاجتماعي مع تجاهل الأبعاد الاجتماعية والسياسية والتاريخية لهذا التفاعل؛ وهم في غالب الأحيان يتناولون هذا التفاعل دون أي إشارة إلى السياق الاجتماعي الذي يتم فيه، وبالمقابل، فإنهم يتجاهلون دور المؤسسات الاجتماعية والأحداث التاريخية السياقية التي يتم فيها هذا التفاعل"⁽²⁾.

وقد ذكر روبرت Robert في نقده الموجه إلى «جورج ميد» "بأن الأنشطة التي يرى من خلالها الناس لا تحدد تاريخ علاقات الاستمرار التاريخي والاجتماعي، وأنها تكون سلسلة من التفاعلات والمواقف، والمقابلات فحسب. وهذا مما جعل البعض ينظرون إليها في معالجتهم للمشكلات الاجتماعية على أنها قد جردتها من أصولها التاريخية ومراحل تطورها المختلفة، ومثلما جردتها من نظمتها الاقتصادية؛ ومن ثم وصفت بأنها غير تاريخية، وغير اقتصادية"⁽³⁾.

وعلى الرغم من أهمية النظرية التفاعلية الرمزية في تناول قضية الأفعال الفردية من الناحية اللسانية والسميائية والرمزية، والتأكيد على عملية التفاعل أو عملية الفعل ورد الفعل، واستجلاء دلالاته الرمزية واللغوية والبصرية، في سياق تواصل وتبادل معين، بالرغم من ذلك كله، فإن هذه النظرية "تعرض للنقد لأنها تهمل القضايا الأوسع التي تتعلق بالسلطة وبالبنى في المجتمع، وبالطريقة التي يفرضان بها القيود على الفعل الفردي"⁽⁴⁾.

ويستخلص من الانتقادات الموجهة إلى التفاعلية الرمزية أنها لا تعدو أن تكون أكثر من إطار نظري يدور في فلك الفعل الاجتماعي وهي لم ترقى حتى الآن إلى أن تكون نظرية اجتماعية متكاملة الأركان متفاعلة في بنيتها ووظيفتها الاجتماعية، كما أن الفعالية السوسولوجية التي تمارسها لا تتعدى البحث في الجزئيات وفي

1- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 124.

2- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الرامخ ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 185.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- أنتوني غدينز، علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصياغ، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2005، ص 27.

الذرات التي تتمثل في الأفعال الاجتماعية التفاعلية في الجماعات المصغرة جداً، ولا يُنكر النقاد، رغم ذلك، أن المنهجية التفاعلية مصممة بصورة فعالة لفهم وإدراك تعقيدات الحياة اليومية الفعلية المصغرة⁽¹⁾.

ومن الجوانب التي تعرّضت للنقد في بنية التفاعلية الرمزية إفراطها في التركيز على الوعي الذاتي والأنطباعات الحسية والجوانب الشعورية، وهذا ما سجّله «بريتان» Abrittan بقوله: إن "التفاعلية الرمزية قد أكدت كثيراً على الوعي الذاتي والجوانب الشعورية، وأنها تجاهلت في ذلك إلقاء الضوء على العوامل اللاشعورية وأثرها في عمليّة التفاعل"⁽²⁾.

ويرى بعض النقاد أن التفاعلية الرمزية نمط من التعبير الأيديولوجي الذي ساد المجتمع الأمريكي في العصر الحديث. وهي، في أفضل أحوالها، تمثل علم الاجتماع الأمريكي، وتُعبّر عن تطلعاته الثقافية في مجال التأكيد الليبرالي على الحريات الفردية والزعة البرغماتية. وهذا ما يفسر انتشار هذا التيار في أمريكا وحدها، دون غيرها من البلدان. وتبين الوقائع التاريخية أن التفاعلية الرمزية لم تشهد حضوراً ذا بال في أوروبا أو آسيا؛ نظراً لوجود وعي سياسي كبير بالصرعات الأيديولوجية والحقوق الطبقيّة⁽³⁾.

ويتضح أيضاً، ضمن هذا السياق، أن التفاعلية وضعت نفسها في مواجهة ضدّ النظرية الكلاسيكية التي اعتمدت مناهج العلوم الطبيعية في البحث والاستكشاف. وهذا الأمر هو الذي أفقدها كثيراً من تألقها المنهجي، ودفعها إلى الإنزلاق في دائرة التفاعلات اليومية الرمزية البسيطة التي لا يمكنها أن تضيء لنا الجوانب الحقيقية للحياة الاجتماعية⁽⁴⁾.

وباختصار يمكن أن نوجز أهمّ الانتقادات التي وجهت إلى التفاعلية الرمزية على النحو الآتي:

1- أكدت التفاعلية الرمزية على طابع التفاعل الرمزي في المجتمع خارج السياقات الاجتماعية والتاريخية لهذا التفاعل، وهذا يعني أنها أهملت الظروف والمعطيات الاجتماعية التي توطر لحركة التفاعل في جدليات التأثير والتأثر بالظواهر الاجتماعية ومؤسستها الكبرى.

2- تعاني التفاعلية من الغموض الذي شمل مفاهيمها وأطروحاتها ومبادئها الأساسية.

3- لم تستطع التفاعلية تقديم البراهين والحجج الكافية حول الكيفيات التي تؤدي إلى تشكيل وبناء التكوينات الاجتماعية القائمة.

4- قللت التفاعلية الرمزية من أهمية البناءات الاجتماعية، وجعلتها مجرد نتاجات عفوية طبيعية للتفاعل الاجتماعي. وهذا يتناقض مع معطيات التفكير السوسيولوجي وحكمته. فالتفاعل الحر لا يؤدي بالضرورة إلى تشكيل طبقة أو سياسة أو ظاهرة اجتماعية.

1- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 128.

2- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الراجح ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 183.

3- المرجع نفسه، ص 186.

4- شحاته صيام، القهر والحيلة، أنماط المقاومة السلبية في الحياة اليومية، كتب عربية كوم، 2023/3/14.

<https://ia800307.us.archive.org/25/items/kawkb-zahiri/48.pdf>

5- أخفق رواد التفاعلية في تحديد المنهجيات التفاعلية بطريقة واضحة، وقد وقف معظمهم ضد المنهجيات العلمية التي تعتمد في العلوم الطبيعية، وامتد رفضهم إلى الرّفص الواضح للموضوعية في علم الاجتماع.

وباختصار، يمكن القول أيضاً إنه قد اتّضح لنا عبر التحليل النقدي للتفاعلية الرمزية بأنها تُشكل اتجاهاً فكرياً سوسولوجياً يقوم بدراسة الفعل الاجتماعي في مُعترك التفاعل الاجتماعي الرمزي المعنوي بين أفراد المجتمع، وغالباً ما تتمحور الدراسات التفاعلية الرمزية حول الفعل الاجتماعي.

9-3- دفاع " التفاعلين الرمزيين " :

لم يقف أنصار التفاعلية الرمزية مكتوفي الأيدي أمام هذه الانتقادات العنيفة ضد نظريتهم ولا سيما هذه التي تناولت نأيمهم عن القضايا الكبرى في المجتمع (الطبقات، والأعراق والسياسات، والتحوّلات الاجتماعية، والثورات... الخ) وهم في سياق ردّهم يعتقدون أنّ التكوينات الاجتماعية الكبرى لا تعدو أن تكون كيانات مجردة، وأنهم يستطيعون الدخول في نقاشات مجردة وممتعة حولها (كما في الألباز الصعبة)، ويستطيعون تأويل العالم وفقاً لتأثير هذه التكوينات الكبرى (كما في لعبة الكلمات المتقاطعة)، ولكنهم يرون أنّ ذلك كله لا يجدي في الوصول إلى استنتاجات حقيقية مرضية، ولن يتجاوز هذا الأمر أكثر من إدراك ما هو واقع أمام أبطارنا⁽¹⁾. وهذا يعني أنّ أنصار النظرية يصرون على رفض البحوث الأمبيريقية والتجريبية، ويلحون على صعوبة اختراق الحقيقة الاجتماعية كميّاً، أو وفق قوانين موضوعية. ويترتب على ذلك أنّ التأويل السيكولوجي والرمزي هو الأنجع في عملية فهم المجتمع، وإدراك تضاريسه المعقدة.

ويعبر بول روك عن هذه القضية بوضوح، إذ يقول: "إنّ طبيعة المجتمع غامضة لدرجة أنّ المحاولات العلمية لمناقشة تلك الطبيعة، هي محاولات لا تستقيم مع العقل بوجه عام. وقد نستخدّم تعريفات فضفاضة نتكئ عليها لتوجيه التحليل، لكنّ افتراض إمكانية رسم صورة لأنساق كبيرة من أنساق المجتمع أمرٌ مضللّ (...). ولهذا يتردد عالم الاجتماع في الكتابة عن المجتمع بصفتة موضوعاً غير قابل للتحليل على وجه الإطلاق. وحينما يفعل ذلك، فإنّه قد لا يفعل أكثر من تصويره على هيئة كتلة هلامية من عمليات التبادل غير المستقرة"⁽²⁾.

1- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص 124.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

10- خاتمة:

تُشكّل التفاعلية الرمزية، كما رسمنا حُطوطها وتقاطعاتها، إتجاهاً فكرياً شديداً التعقيد. ويبدو لنا أنّ الخوض في متاهاته وتضاريسه المعقدة حوضاً في الغامض والمهم والمتشابه والمتداخل والعصي على الفهم والتنظيم. وقد وقع في أيدينا أنّ هذه النظرية تُشكل مدّاً من الأمواج المتدافعة في بحر هائج. وقد بينت تأملاتنا أنّ النظرية تُشكل تقاطعاً من التناقضات والمفاهيم الغامضة التي لم تكتمل في نضجها وفي تكاملها. وقد حاولنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً العمل على رسم خريطة واضحة لهذا التيار المتنامي في مختلف تجلياته وتناقضاته المنهجية والمدرسية. يعتمد منظور التفاعل الرمزي على كينونية تطوير البشر لمجموعة معقدة من الرموز لإعطاء معنى للعالم، وتُركّز على الطريقة التي يتفاعل بها الناس من خلال الرموز بالكلمات والإيماءات والأشياء التي يبدعها على نحو رمزي. وهم، في هذا السياق، يضيفون على الرموز والعلامات دلالات ومعاني، ويُطوِّرونها في سياق تفاعلهم الدائم مع الآخرين ومع عناصر البيئة التي يعيشون فيها ومع الناس. ويتضح أنّ التفاعل يؤدي دوره في عملية تشكيل الهوية والإنسان، وبناء النسيج الاجتماعي. وتفيد النظرية بأنّ الأفراد يُبدعون التكوينات الاجتماعية في سياق تفاعلهم الذي يؤدي أيضاً إلى تشكيل الهوية والدات على مبدأ المرونة الدائمة. وباختصار، فإنّ التفاعل الرمزي هو الطريقة التي نتعلّم بها تفسير العالم وإعطاءه الدلالة والمعنى من خلال تفاعلاتنا الإنسانية الرمزية التي لا تتوقف أبداً.

وقد وضح لنا في استعراضنا لبنية التفاعلية الرمزية ومفاهيمها الرئيسة، أنّ أنصارها يؤكدون على أنّ الحياة الاجتماعية لا تكون إلا نتاجاً للتفاعلات الرمزية التي تقوم فيما بين الأفراد أنفسهم، وفيما بينهم وبين مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية بما تنطوي عليه تلك الحياة من وضعيات ومواقف وعمليات شديدة التعقيد. وقد تبين لدينا، من خلال تناولنا لمفاصل التفاعلية الرمزية، بأنّها تُشكل تياراً فكرياً أمريكياً في صبغته السوسولوجية والأيدولوجية، وقد خلصنا إلى أنّ التفاعلية الرمزية تيارٌ متدفق من الأفكار والتصوّرات يتمخوذ حول مركزية العلاقات الصميمة الرمزية التي تقوم بين الحياة الداخلية للفرد (الدات والعقل)، وبين الحياة الخارجية التي تضعه في مواجهة نشطة مع معطيات الوسط الاجتماعي بما ينطوي عليه من أفراد وعلاقات ورمزيات وقيم ومعايير سلوكية وأحكام أخلاقية. وقد ركزت هذه التفاعلية على فكرة جوهرية تتمثل في أنّ الهوية الذاتية للفرد لا تتشكل إلا في حضم التفاعل الرمزي مع الآخرين ضمن تواتر التقييم المتبادل بين الفرد والآخر، بين الفعل ورد الفعل الرمزي الذي يُشكل أولية البناء الرمزي للهوية في حركة مستمرة من دوال الرموز والدلالات والمعاني.

يعترف معظم النقاد في العلوم الإنسانية بأنّ التفاعلية الرمزية قد سطرت نهجاً سوسولوجياً مبتكراً في معالجة قضايا الحياة اليومية، وفي التأسيس لعلم الاجتماع اليومي، ومنه إلى ترسيخ مناهج البحث الدري أو الميكروسوسولوجي في مجال علم الاجتماع والسيكولوجيا الاجتماعية. ويُمكن القول على وجه التأكيد إنّ الإنتاج المعرفي للتفاعلية الرمزية يُمثل كترافكرياً لا يُقدّر بثمن، وقد قدّر للبحوث التفاعلية هذه أنّ تغوص في أعماق السلوك الإنساني، وأنّ تخوض حوضاً مبتكراً في استكشاف خفاياه والكشف عن أسرار الصميمة سيكولوجياً واجتماعياً.

رَغِمَ النِّقْدِ الَّذِي مَارَسَهُ عُلَمَاءُ الإِجْتِمَاعِ البُنْيُونُونَ ضِدَّ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ، فَإِنَّهُ لَمِنَ المُوَكَّدِ أَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ جَاءَتْ لِتُعْطِيَ مِسَاحَةً هَائِلَةً مَجْهُولَةً مِنْ سوسِيولوجيا الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ. وَمِنَ الواضِحِ فِي مُخْتَلَفِ مَرَاكِجِ تَطَوُّرِ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ أَنَّ أياً مِنْ رُؤَادِهَا لَمْ يَرْمُ تَأْسِيسَ نَظَرِيَّاتٍ كُبْرَى، بَلْ أَكَّدَ أَصْحَابُ هَذَا التِّيَّارِ بِأَتْهُمْ يَسِيرُونَ وَفُقَ خَطِّ مَنَهْجِي مُخْتَلِفٍ، وَأَنَّ الحَيَاةَ اليَوْمِيَّةَ، بِتَفَاصِيلِهَا الصَّغِيرَةِ، تُشَكِّلُ مَوْضُوعَهُمُ الأَسَاسِيَّ، فَخَاضُوا فِي مَتَاهَاتِهَا، وَحَلَّقُوا فِي أَبْرَاجِهَا العَالِيَةِ إِسْتِكْشَافاً وَبَحْثاً وَتَقْصِيّاً.

وَمِنَ المُوَكَّدِ أَنَّ رُؤَادَ هَذِهِ النَظَرِيَّةِ لَمْ يَزْعُمُوا قَطُّ أَنَّهم قَدْ سَعَوْا إِلَى التَّأْسِيسِ لِنَظَرِيَّةٍ كُبْرَى مُتْرَافِئَةٍ الأَطْرَافِ فِي عِلْمِ الإِجْتِمَاعِ، وَجَلَّ مَا حَاوَلُوهُ هُوَ أَنَّهم خَاضُوا فِي تَجْرِبَةِ البَحْثِ وَالإِكْتِشَافِ فِي مَجَاهِلِ الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَفِي عُمُقِ تَفَاصِيلِهَا الذَرِيَّةِ اليَوْمِيَّةِ. وَهم فِي سِيَاقِ تَجَارِبِهِمُ إِسْتَطَاعُوا أَنْ يَعْتمِدُوا مَنَهْجاً فَرِيداً يَقُومُ عَلَى المَنَهْجِ ما بَيْنَ الأَدَبِ وَاللُّغَةِ وَعِلْمِ النَفْسِ وَعِلْمِ الإِجْتِمَاعِ، وَاسْتَطَاعُوا تَوْظِيفَ هَذَا المَنَهْجِ فِي تَفْكِيكِ التَّعْقِيدِ المُركَّبِ لِلظَّوَاهِرِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ فِي مَجَالِ الحَيَاةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ.

وَقَدْ تَشَكَّلَ تِيَّارُ التَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ وَفُقَ تَرَكَمِيَّةِ سوسِيولوجيَّةٍ لَمْ تَكُنْ مَقْصُودَةً أَوْ مُوجَّهَةً أَيديولوجياً، كَمَا هُوَ الحَالُ فِي سوسِيولوجيا العَمَالِقَةِ أَرْبابِ الوَضْعِيَّةِ وَالبِنَائِيَّةِ وَالمَارْكَسِيَّةِ. وَهَذَا يَعْني أَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ نَشَأَتْ عَلَى صُورَةِ تِيَّارِ سوسِيولوجيِّ تَرَكَمِيٍّ يَتَمَلَّكُهُ هَاجِسُ البَحْثِ عَنِ الحَقِيقَةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ فِي أَدَقِّ تَفَاصِيلِهَا وَأَعَمَّقَ مَكُونَاتِهَا الإِنْسَانِيَّةِ.

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نُلَاحِظَ، فِي هَذَا السِّبَاقِ، أَنَّ مُعْظَمَ النُّقَادِ قَدْ تَنَاوَلُوا التَّفَاعُلِيَّةَ الرَّمْزِيَّةَ بِوَصْفِهَا نَظَرِيَّةً مُتْكَامِلَةً الأَرْكَانِ، وَقَدْ تَأَسَّسَ نَقْدُهُمْ عَلَى تَنَاوُلِهَا وَتَفْكِيكِهَا آخِذِينَ بَعَيْنِ الإِعْتِبَارِ أَنَّهَا كُنْثَلَةٌ نَظَرِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ بَدَأَتْ سِهَامُ النِّقْدِ تَتَكَثَّفُ فِي تَأْكِيدِ بَعْضِ مِنْ جَوَانِبِ ضَعْفِهَا وَقُصُورِهَا النَظَرِيِّ وَالمَنَهْجِيِّ. وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ مُعْظَمَ النِّقْدِ الَّذِي وَجَّهَ لِلنَظَرِيَّةِ قَدْ يَبْدُو بِاهْتِئَانٍ إِذَا أَحَدْنَا بَعَيْنِ الإِعْتِبَارِ أَنَّ التَّفَاعُلِيَّةَ النَقْدِيَّةَ هِيَ تِيَّارُ فِكْرِيِّ سوسِيولوجيِّ تَتَفَاعَلُ فِيهِ رُؤَى وَتَصَوُّرَاتٌ تَتَقَارَبُ أحياناً، وَيَنأى بَعْضُهَا عَنِ بَعْضٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ. وَيُمْكِنُ لِهَذَا الإِتْجَاهِ فِي المُسْتَقْبَلِ أَنْ يَكْتَمِلَ بِوَصْفِهِ نَظَرِيَّةً مُتْكَامِلَةً الأَرْكَانِ. وَهنا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ بَعَيْنِ الإِعْتِبَارِ حَدَاثَةَ هَذَا التِّيَّارِ السوسِيولوجيِّ الَّذِي انْطَلَقَ فِي النِصْفِ الثَّانِي مِنَ القَرْنِ العِشْرِينَ، أَيْ فِي لَحْظَةِ إِكْتِمَالِ التِّيَّارَاتِ الفِكْرِيَّةِ الكُبْرَى (المَارْكَسِيَّةِ وَالبِنَائِيَّةِ وَالْوَضْعِيَّةِ) وَنُضْجِهَا. وَنَرَى أَنَّهُ مَا زَالَ مِنَ المُبَكَّرِ مُحَاكِمَةً هَذَا التِّيَّارِ بِوَصْفِهِ نَظَرِيَّةً.

وَمِنَ المُهِمِّ فِي سِيَاقِ تَنَاوُلِنَا لِلتَّفَاعُلِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ أَنْ نَأْخُذَ بَعَيْنِ الإِعْتِبَارِ أَنَّهَا لَمْ تَتَّسِمَ بِالطَّابَعِ الأيديولوجيِّ، فَمُعْظَمُ رُؤَادِ هَذَا التِّيَّارِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى عِلْمِ الإِجْتِمَاعِ اليَوْمِيِّ المِيدَانِيِّ، وَهَذَا يَعْني أَنَّ الجَانِبَ الأيديولوجيِّ يُسَجَّلُ غِيَابُهُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَمِنَ المَعْرُوفِ أَنَّ الجَانِبَ الأيديولوجيِّ إِذَا مَا تَوَقَّرَ فِي نَسَقِ فِكْرِيٍّ، فَإِنَّهُ يَحْقِيقُ نَوْعاً مِنَ التَّكَامُلِ بَيْنَ أَجْزَاءِ النَظَرِيَّةِ وَالتَّرَاوِطِ العَمِيقِ بَيْنَ مَكُونَاتِهَا، فَالعُقْدَةُ الأيديولوجيَّةُ أَدَّتْ دَوْرًا كَبِيرًا فِي تَكَامُلِ النَظَرِيَّاتِ الكُبْرَى مِنْ مِثْلِ البِنَائِيَّةِ وَالمَارْكَسِيَّةِ وَالفَيْبَرِيَّةِ (نِسْبَةً إِلَى ماركس فيبر). وَمِنَ أَجْلِ تَوْضِيحِ هَذَا الأَمْرِ لِنَنْظُرَ إِلَى المَارْكَسِيَّةِ بِوَصْفِهَا نَظَرِيَّةً فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَغَايُرِ مُعْطِيَّاتِهَا وَتَصَوُّرَاتِهَا عَبْرَ الزَّمَنِ، إِلاَّ أَنَّ المُجَدِّدِينَ حَاوَلُوا دَائِماً المُحَافَظَةَ عَلَى النِّسْجِ الأيديولوجيِّ المُتْكَامِلِ لِنَظَرِيَّةٍ تَزْعُمُ أَنَّهَا تُدَافِعُ عَنِ حُقُوقِ

المطلوبين والمقهورين في التاريخ الإنساني. ومثل هذا الجانب العقائدي مازال غائباً في الاتجاه التفاعلي الرمزي⁽¹⁾.

ومهما يكن النقد صارماً وفعالاً، فإنه يجب أن نذهل عن أن الأعمال التي قُدمت في مجال التفاعل الرمزي في الحياة اليومية ما زالت تُشكل ضرورةً تاريخيةً ملهمةً لعلم الاجتماع، فالعمل على فهم الصغائر قد يؤدي إلى فهم أكبر للكبائر.

وتأسيساً على ما تقدم، كان على النقاد أن يتناولوا التفاعلية الرمزية بالنقد والتحليل ضمن توجه الاستكشاف النقدي لمعطيات هذه النظرية ومدى قدرتها على استكشاف وتحليل الواقع الاجتماعي من منظور تفاعلي. وقد سجل النقاد كثيراً من الملاحظات النقدية الصارمة إزاء الحمولة الفكرية للتفاعلية الرمزية.

وفي الختام، تجب الإشارة إلى أن التفاعلية الرمزية ما تزال في طور نمائها، وأن موعد قطافها الأكبر قد يأتي مع الزمن القادم، وقد بينت الملاحظات وجود تيارات عميقة في قلب التيار تنشد أحداث تغيرات عميقة في بنية النظرية، وتعمل على تطويرها، وصقل مفاهيمها، وتحقيق التراكم البحثي، في معطياتها ومناهجها. وفي هذا السياق تندرج محاولات "شارلز موريس" العلمية في مجال التفاعلية الرمزية، وتعد أبحاثه الجديدة الأكثر حداثة وقدره على تطوير النظرية، إذ ينصب اهتمامه على دراسة الظواهر التفاعلية عبر عملية تحليل الرموز والإشارات والأصوات والمعاني، بمنهجية تأخذ أبعاداً أدبية ولغوية وسوسولوجية. وقد عمل على توليد نسق من المصطلحات والمفاهيم التي يمكن توظيفها في تحليل طبيعة التواصل الإنساني، ودراسة الوسائل الاتصالية التي يعتمدها الأفراد في التفاعل الاتصالي. ويمكن في هذا السياق الإشارة إلى أعمال كل من "كنسيس (Kensass)"، و"هيل (Hal)" التي كُرسَتْ لتطوير نظرية التفاعل الرمزي. ويمكن القول في نهاية المطاف: إن التفاعلية الرمزية تُشكل اليوم طاقةً معرفيةً سوسولوجيةً يتوسع أداؤها في مختلف البحوث والدراسات السوسولوجية والسيكولوجية المعاصرة، ولا سيما في مجال الاتصال والمعلوماتية، وفي مجال دراسة وسائل الاتصال الاجتماعية. وقد شهدت الساحة الفكرية نشاطاً كبيراً ومهولاً في استخدام هذه النظرية في مجال التواصل الاجتماعي في زمن الميديا والمعلوماتية والتواصل الإلكتروني.

1- مريم زعتر، الإعلان في التلفزيون الجزائري -تحليل مضمون إعلانات القناة الوطنية - مذكرة مكملة لنبل شهادة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، السنة الجامعية 2007/2008. ص 40.

مراجع الدراسة وهوامشها :

العربية:

- 1- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة: دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة الطبعة الثالثة، بغداد: دار وائل للنشر، 2015. ص 86.
- 2- آلان كولون، مدرسة شيكاغو، ترجمة: مروان بطش، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2012.
- 3- السيد رشاد غنيم والسيد محمد الرامخ ونادية محمد عمر، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2008.
- 4- أنتوني غديز، علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصياغ، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2005.
- 5- إيان كريب. (1999)، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، ع (244)، الكويت.
- 6- إيان كريب، النظرية الاجتماعية، من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة: محمد حسين غلوم، مراجعة: محمد عصفور، الكويت: عالم المعرفة، العدد 244، 1999.
- 7- جميل حمداوي، جورج زيمل والسوسيولوجيا التفاعلية، جامع الكتب الإسلامية، 2023/3/13. <http://bitly.ws/BwxC>
- 8- جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، الألوكة، الطبعة الأولى، 2015.
- 9- جميل حمودي، علم الاجتماع بين الفهم والتفسير، شبكة الألوكة، بوابة علم الاجتماع، 2019.. https://www.b-sociology.com/2019/04/pdf_13.html
- 10- جى روشيه علم الاجتماع الأمريكي: دراسة الأعمال تالكوت بارسونز الطبعة الأولى، ترجمة د. محمد الجوهرى د. أحمد زايد القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.
- 11- شحاته صيام، القهر والحيلة، أنماط المقاومة السلبية في الحياة اليومية، كتب عربية كوم، 2023/3/14. <https://ia800307.us.archive.org/25/items/kawkb-zahiri/48.pdf>
- 12- عبد الرحيم العطري، سوسيولوجية الحياة اليومية: الرمزي أفقا للتفكير، دفا تر العلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2018.
- 13- علي عبد الرزاق جلي. (1993)، الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- 14- فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه، علم الاجتماع: من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة إياس حسن، دمشق: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.

- 15- كشرود، فاطمة الزهراء وبو عمامة العربي، نظرية التفاعلية الرمزية ونظرية الحتمية القيمية حدود الانتقاء ونقاط الالتقاء، مجلة الحكمة للدراسات الإعلامية والاتصالية، العدد 24، (2021) صص 154-167.
- 16- [ليث بني نصر](http://bitly.ws/BsFj)، السيميائية عند بيرس، موقع موضوع، 29 مارس 2022. <http://bitly.ws/BsFj>
- 17- محرر مجلة القافلة، التفاعل الرمزي الاجتماعي. نظرية فلسفية مهيمنة لكن ناقصة، القافلة 25 مارس، 2019.
- 18- محمد عوض التربوي، النظريات الحديثة في علم الاجتماع التربوي (التفاعلية الرمزية، والنظرية المعرفية)، مداد، 27 شوال 1428 <http://bitly.ws/yrMi> (08-11-2007).
- 19- مريم زعتر، الإعلان في التلفزيون الجزائري -تحليل مضمون إعلانات القناة الوطنية – مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، السنة الجامعية 2008/2007.
- 20- و.ك. س. جثري، الفلاسفة الإغريق من طاليس إلى أرسطو، ترجمة رأفت حليم سيف، مراجعة د. إمام عبد الفتاح إمام، مطابع الطليعة، الكويت، 1988.

الاجنبية:

- 1- Aksan, Nilgun, Buket Kısac, Mufit Aydın, and Sumeyra Demirbuken. 2009. "Symbolic Interaction Theory." *Procedia, Social and Behavioral Sciences* 1(1):902–4.
- 2- Blumer, Herbert. 1969. *Symbolic Interactionism: Perspective and Method*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
- 3- Carter, M. J., & Fuller, C. (2015). [Symbolic interactionism](#). *Sociopedia. isa*, 1(1), 1-17.
- 4- Collins, R. (1994). The microinteractionist tradition. *Four sociological traditions*, 242-290.
- 5- Cooley, C.H. *Human Nature and the Social Order*, New York, Schocken, 1984.
- 6- Coser, Lewis A. *Masters of Sociological Thought* New York, Harcourt, Brace, 1977.
- 7- Del Casino, V. J., & Thien, D. (2009). Symbolic interactionism. In *International encyclopedia of human geography* (pp. 132-137): Elsevier Inc.
- 8- George Simmel, *Soziologie: Untersuchungen über die Formen der Vergesellschaftung*. Berlin: Duncker & Humblot.
- 9- George Simmel: *Sociologie, Etude sur les formes de la socialisation*, Paris, P. U.F. F1999.
- 10- Mead, G.H. *Mind, Self and Society*, Chicago, University of Chicago Press, 1984.
- 11- Meltzer, B. N., & Petras, J. W. (1970). The Chicago and Iowa schools of symbolic interactionism. *Human nature and collective behavior*, 3-17.

- 12-Musolf, Gil. 1992. "Structure, institutions, power, and ideology: New directions within symbolic interactionism." *Sociological Quarterly*, 33(2):171-189.
- 13-Reynolds, Larry. 1993. *Interactionism: Exposition and critique*. Rowman & Littlefield. Rock, Paul. 2016. *Making of symbolic interactionism*. New York: Springer
- 14-Snow, David A. 2001. "Extending and Broadening Blumer's Conceptualization of Symbolic Interactionism." *Symbolic Interaction* 24(3):367–377.